أبو العلاء المعرّي

نسبه وأخباره - شعره - معتقده

للعلامة المحقق المغفور له
أحمد تيمور باشا

obeikandl.com

obeikandl.com

أبو العلاء المعرّي

نسبه وأخباره - شعره - معتقده

للعلامة المحقق المغفور له
أحمد تيمور باشا

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ م

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤

رقم الايداع	١١٦٣٥ / ٢٠٠٣
I.S.B.N الترقيم الدولي	977 - 344 - 073 - 7

obeikandl.com

فهرس

	صفحة
المقدمة : بقلم الأستاذ الدكتور بدوى طبانة	١
فصل فى نسبه	٢٠
فصل فى بيئته	٢٢
فصل فى مولده ووفاته وحليته	٢٥
فصل فى نشأته وطلبه العلم رحلته	٣٢
فصل فى تلاميذه	٣٦
فصل فى مبلغ علمه وذكائه	٣٩
الرسالة الأغريضية	٦٧
فصل فى ثروته وزهده	٧٥
رجع إلى أبى العلاء	٨١
فصل فى مؤلفاته	٩٣
فصل فى بقية أخباره	١١١
شعر أبى العلاء	
فصل فى المكرر من شعره	١٢٥
فصل فى سرقاته	١٢٩
فصل فى مآخذ الشعراء من شعره	١٤٣
فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره . . .	١٤٨
معتقده	
فصل فى اختلافهم فيه	١٥٣
قصيدة لأبى العلاء المعرى	١٦٦

obeikandi.com

صفحة

فصل فى معتقده فى الله ١٦٨
رجع إلى شعر أبى العلاء. ١٨١
فصل فى معتقده فى النبوات والرسل ١٨٦
المصادر والمراجع ١٩١

obeikandl.com

المقدمة

كتب العلامة ابن خلدون مقدمته التى درس فيها طبيعة العمران ، وأحوال المجتمع الإنسانى ، وما يسمو به من الأعمال والصناعات ، وما ينحطّ به من العلل والآفات . وكتب فى تلك المقدمة فصلا جاء فيه إن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل ، وذكر أنه مما أضرّ بالناس فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف ، واختلاف الاصطلاحات فى التعاليم وتعدّد طرقها . . فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلّها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها . ولا يفى عمره بما كتب فى صناعة واحدة إذا تجرّد لها ، فيقع فى القصور . .

وإذا كان قول ابن خلدون فى أن كثرة التآليف وتشعبها تعوق تحصيل العلم ، يصدق على أكثر الناس لما فيه من تشتيت الجهود ، وبلبلة الأفكار ، واضطراب العقول بين موادها المختلفة ، فإن هذا القول يفقد صدقه عند عالمنا الكبير المغفور له أحمد تيمور الذى لم يعقه عن تحصيل العلوم كثرة كتبه ، ولا تعدّد مراجعه فى كلّ فن من فنون المعرفة التى عرض لها بالدراسة العميقة ثم بالتأليف النافع .. قضى أحمد تيمور حياته الغالية ، وبذل أمواله الوافرة فى التنقيب عن أصول العلم ومراجعه ، يجد فى طلبها ، ويشتريها بالحرّ من ماله ، ويستنسخها لنفسه ، حتى اجتمع له مالم يجتمع لواحد من المولعين باقتناء الكتب ونفائس المخطوطات فى زماننا ، وأصبحت مكتبته الخاصة ثالثة المكتبات فى الديار المصرية ، بعد دار الكتب المصرية ، والمكتبة الأزهرية .

ولم تكن المكتبة التيمورية فى حياة صاحبها مظهراً من مظاهر الزينة والترف ، ولا سبباً من أسباب الإدلال على الناس بكثرة ما اقتنى منها ، وما جمع من شواردها ، كما يفعل ذلك بعض السراة الذين يزينون دورهم بخزائن الكتب ، وتنسيق مجلداتها ، ليفتنوا بها روّادهم ، ويروهم أنهم من العلم بسبب ، وهم لا تعدو حقيقة أمرها أن تكون أشبه بالدمى الصامتة

وبالتماثيل المنصوبة التى قد تبهظ أثمانها ، وحظ صاحبها وحظّ روادها منها لا يعدو النظر إليها فى خشية واستحياء . وغاية ما يشتهون أن يقال إن هذا الكتاب منه نسخة بمكتبة فلان ، ليتيه بذلك ماشاء ، ويزداد به زهواً وخيلاء ثم يتوارثها الأبناء والأحفاد فى جملة ما يتوارثون من الحطام وسقط المتاع ، وما انتفعوا وما نفعوا .

ولكن مكتبة أحمد تيمور ظلّت طوال حياته نزهة طرفه ، ونور عقله وقلبه ، وأمل روّاده وكعبة قصّاده ، ينهل من بحارها ما شاء ، وينهلون منها ما استطاعوا ، وهو راض قرير العين ، سعيد سعادة الأمجاد بقرى الضيفان .

ولم يشأ أحمد تيمور أن تظل تلك المكتبة الزاخرة بعد وفاته حبيسة بين جدران داره ، ليرثها أبناؤه فى أغلى وأعزّ ما يورث من متاع الحياة الدنيا . ولكنه كان يؤمن بشركة العلم ، ويعرف اثم من يحبسه من طلابه ، فأهداها إلى حيث يردها البعيد والقريب ، وينتفع بذخائرها النفيسة كلّ راغب من غير حرج أو تثريب .

إن للعلم حقاً بلى حقين ، عرفهما أحمد تيمور ورعاهما ، وقام بهما حير قيام وهما حق التحصيل ، وحق الإفادة بذلك التحصيلى . ولم يقصر أحمد تيمور فى رعاية الحقّين ، فأكرم نفسه بالعلم الذى حصله ، والمعرفة التى أفادها . ثم وقف ما جمع وما حصل على طلاب المعرفة الذين رأى أنهم يحتاجون إلى ما جمع ، ولا يجدون إليه السبيل إلا فى مثل ماصنع .

* * *

ويرسم أحمد تيمور لنفسه صورة الرجل الفاضل ، وهى صورةٌ فذّة فى زماننا ، وهى أيضاً صورة كريمة ترفع من شأن العلم ، وتعظم من دولة الأدب ، وتعيد لها سيرتها الأولى من رعاية الذين استطاعوا هذه الرعاية ،

والذين ملكوا أسبابها . أيام كان للعلم صولته ، وكانت للأدب دولته ، وأيام كان جلال الملك وعظمة السلطان لا يجدان لهما مظهراً إلاّ فى مساندة العلماء وإشادة الأدباء .

فقد عرف تاريخنا الحديث بيت تيمور ، وصلته الوثقى بأصحاب السلطان بل ومشاركته فى هذا السلطان .

والسلطان والجاه صنوان ، وحيث يكون السلطان يكون الجاه . ولكن الجاه الذى يستمد من السلطان هو أيسر ألوان الجاه ، لأنه جاه لا عناء فى تحصيله بعد الحصول على السلطان ، وما يتيح لصاحبه من الصولة بالأمر والنهى ، والحل والعقد ، والاستعلاء بما يملك من أسباب الترغيب والترهيب .

وقد عهدنا أصحاب الجاه والثراء والسلطان ، إلا قليلا ممن عصم الله ، تغرهم النعمة ، وتفتنهم الدنيا ، فيصدون عن ذكر الله ، شاخين بأنوفهم ، متعالين على بنى جلدتهم ، يتهافتون على شهوات النفس تهافت الفراش على النار ، ويتهاوون فى حمأة الرذائل ، فتحول نعمة الله عليهم نقمة ، وبلاء لمن يخالطهم من بنى البشر الذين ينظرون إليهم نظرة السادة إلى العبيد ، أو نظرة الأحرار إلى الأرقاء .

ولكن أحمد تيمور يصدف عن ذلك الجاه الذى استمده من كرامة المنبت ومن عراقة البيت ، ومن سلطة الآباء لأنه جاه لم يبنه بيده ، ولم يحصله بجهده ولذلك طلب الجاه الذى يبقى والمجد الذى يغنى ، وهو مجد العلم النافع وجاه المعرفة الباقى ، مع الخلق العالى ، والدين القيم ، والتشبث بالفضائل النفسية ، ومكارم الأخلاق التى حلاه بها الله ، فإذا كان صحب أولئك هم الجان والفساق فإن صحب أحمد تيمور هم حملة العلم وأركان دولة الأدب ، وإذا كان نديم

أولئك الكأس والشراب ، فإن نديم أحمد تيمور هو القلم، وأنيسه الكتاب ولذلك صان الله نفسه الذكية ، فتعالت عن الآثام ، وصان ماله فلم ينفق إلا فى حلال .

* * *

وصورة أخرى من صور كمال النفس ، وتماسك الشخصية ، تطالعنا فى أحمد تيمور . . فقد كان على صلة باللغة الفرنسية إلى درجة الإجادة والإتقان فقد تلقنها طفلا ، وأتقنها يافعاً ، كما كان على معرفة باللغة الفارسية واللغة التركية وقد اطلع على ماشاء من العلم الذى انتهى إليه أصحاب هذه اللغات والآداب التى كتبت بها .

ومن عادة الذين يقفون على بعض ما وقف عليه أحمد تيمور أن يشمخوا بأنوفهم ويتنكروا لقوميتهم ومقوماتها ، ويدلوا على قومهم بهذه المعرفة المجتلبة ، فيجترون كلام غيرهم ، وأفكار الأجانب عنهم ، وكثيراً ما ينتهبونها وينسبونها إلى أنفسهم ، منتهزين غفلة الناس عن مصادر إفادتهم . وقد يأخذك العجب حين تقرأ أو تسمع أن رجلا عربياً أو أمرأة عربية ، عاش كلاهما حياته أو أكثرها فى أرض العروبة والإسلام ، ثم صاغ شعراً وألف دواوين باللغة الفرنسية أو غيرها من اللغات الأجنبية فى حين أنه لم يخط فى الأدب العربى سطراً واحداً أو بيتاً من الشعر ! وماذا يكون « مركب النقص » الذى يذكره علماء النفس إذا لم يكن مثل هذا ؟

ولكن أحمد تيمور كان كما قلنا يعرف نفسه ويعرف مقوماته الأصيلة وما تحتاج إليه من كشف وتوضيح ، أو دعم وتوكيد فأكب على علوم العربية والثقافة الإسلامية يكمل بها نفسه ، ويتعمق فيها ، حتى يصل إلى مستوى رفيع من المعرفة بأسرارها ، يتيح له أن يبحث فيها ، وأن يكتب عنها ، ويدل على

مصادر علمها وموارده ، حتى استطاع أن ينفع بما انتفع .

ولقد كان خير ما ورث أحمد تيمور أبناءه تلك الخلال الإنسانية الرفيعة فأشربهم حب العروبة والإسلام ، وحب علمها وأدبها ، إلى جانب ماورثهم من المثل العالية فى نبالة النفس ، وفى مكارم الأخلاق . فكان كل واحد منهم صورة لأبيه أو صورة الخلف الكريم للسلف الصالح .

* * *

والكتاب الذى نقدمه اليوم عن أبى العلاء المعرى هو واحد من تلك الآثار التى لا تكاد تحصى مما كتب العلامة أحمد تيمور التى يهتدى الباحثون عنها كل يوم إلى كتاب جديد منها ، يضيف إلى كتاب للمعرفة فصولا جديدة عزيزة ، وهى فى الوقت نفسه جهود نافعة .

والحقيقة التى لا بد من الإقرار بها أن هذا الكتاب ليس أول كتاب فى التاريخ عن أبى العلاء المعرى ، فقد فاضت الكتب منذ قبض فيلسوف المعرة إلى زماننا هذا بالحديث عن أبى العلاء ، واستقصاء أخباره ، وتتبع آرائه وأفكاره ، والبحث على أسرار نفسه ، وهواجس فكره ، وصحة معتقده ثم دراسة عامه ، وما أبدع فى فنى المنظوم والمنثور .

وكان أبو العلاء جديراً بهذه العناية المتصلة جديراً بأن يملأ الدنيا ويشغل الناس بعد مماته كما شغلهم فى حياته ، إذ كان أبو العلاء أشبه بالظاهرة الجديدة أو الظاهرة الغريبة فى العصر الذى عاش فيه ، فقد اجتمع حوله من أسباب العلم الأصيل بحياة أمته وتاريخها ، كما اجتمع من صنوف علمها وفنون أدبها مالم يجتمع لواحد من معاصريه ، وعرف من أحكام الدين وثقافة الإسلام شيئاً كثيراً . وغذى نفسه بألوان من الثقافات الوافدة التى تنظم من شأن

العقل والاحتكام إلى المنطق إلى جانب ما تحوى من الاساطير والخرافات وكان من طبيعة ذلك كله ، أن يكون فى عقله وفى قلبه ألوان من الحضارات ومزاج من الثقافات ظهر أثرها فى كلامه وفيما أملاه من العلم والادب . ومهما يكن من جهد يبذله إنسان ، فإن طاقته البشرية وعمره المحدود لا يتسعان لهضم هذه الثروة الطائلة من المعارف التى أفنت الأجيال وانتهبت أعمار الأمم والجماعات . فكان من أمر إبى العلاء ، ما كان مما حير الناس فى فهم كلامه ، وأدراك مراميه .

وأصبحت الكتب التى ذكرت أخباره ، ونقلت أفكاره ملتقى لكثير من الأقوال المتباينة ، والآراء المتناقضة ، حتى اتهمه من اتهم ، وأنصفه من أنصف ، وكان كل من الفريقين يستند إلى ما قرأ ويعتمد على ما سمع وكان فيه ما يدعو إلى الشك ، كما كان فيه ما يحمل على اليقين . ولذلك لم يكن الذين أنصفوا أبا العلاء مخطئين ، ولم يكن الذين أنصفوه مسرفين .

ويستطيع قارئ كتاب أحمد تيمور عن أبى العلاء أن يستغنى عن تلك الآثار الكثيرة من كتب الطبقات ومراجع الأدب التى تحدثت عن فيلسوف المعرة . وأستطيع أن أقول فى غير تحفظ إن ذلك القارىء لن ينقصه شىء ذو بال من المعرفة التى ينشدها عن أبى العلاء ، وستفضى به قراءته المعمنة إلى الاعتراف بأن هذا الأثر من آثار أحمد تيمور كتاب فذ بين كتب السير وتراجم الرجال ، لأنه يرى دراسة عميقة واعية ، فيها النظرة الفاحصة التى تنشد الحقيقة ، وتبحث عنها فى مظانها ، إن جشمت النفس مالا تطيق وإن أكدت الخواطر ، وأوهنت العزائم فى تحقيقها .

* * *

وسيرى القارىء فى هذا الكتاب ، كما يرى فى سائر مصنفات أحمد تيمور دقة صاحبه وحرصه على أمانة العلم ، فلم يستشعر مرجماً إلا صرح به ولم يفد من رأى إلا أسنده إلى صاحبه . وهنا تروقك عبارة ما قرأ

وكثرة ما وعى ، وترى صبره الطويل ، وقدرته العجيبة على الفحص والتدقيق .

ثم هو لا يجتزئ بما قرأ وما استوعب ، ولا بما استطاع أن يؤلف بين الروايات والأخبار ، وكان ذلك حسبه . . ولكن فكرته الخاصة تتجلى لك واضحة بين السطور ، وأثر فقهه العميق يتضح فى رد هذه الشبهة ، أو تفنيد تلك الرواية ، بكلام العارف الواثق بمعرفته ، المطمئن إلى رأيه ، الذى لا يتهافت على طلب ما لا تسيغه العقول ، أو يأباه المنطق السليم .

وتحدث أحمد تيمور فى كتابه هذا عن أهم النواحى التى يحتاج إليها القارئ فى التعرف على أبى العلاء ، فتحدث عن نسبه وأخباره ، ودرس شعره ، وبحث عن معتقده . وسيروعك فى كل ما تقرأ ما تطالعه من آيات تمكين الكاتب من موضوعه ، وجمعه بين علم الرواية وعلم الدراية . وسترى مصداق ذلك فى أول صفحة تطالعها من صفحات الكتاب . فبعد أن يورد المؤلف نسب أبى العلاء كما نسبه ابن خلكان يقول : « وهذا أصح ما وجدناه بالمعارضة على ما فى كتب الأنساب ، فإن فيما ذكره ياقوت فى « ارشاد الأريب » إسقاطاً لبعض الأسماء ، واضطرابا فى ترتيب بعضها ، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ماحرف منها ، فإن خزيمة بن تيم الله جاء فى النسخة المطبوعة ببولاق : جذيمة بالجيم والذال المعجمة . وما نص عليه فى كتب اللغة والأنساب خزيمة بالخاء والزاى مصغراً . « وتيم الله » بن أسد هكذا فى جميع ماوقفنا عليه من الكتب ، وجاء به أبو العلاء فى سقط الزند : « تيم اللات » فى قوله :

سألته قبل يوم السير مبعثه إليك ديوان تيم اللات ماليتا

وقد يكون هذا تحريفاً فى النسخة ، إلا أن من خبر شعر أبى العلاء

ومذهبه فى تكلف الصناعة والتجنيس ، رجح أنه ما أتى بقوله « ما ليت » أى مانقص ، بعدقوله « اللات » إلا إرادة التجنيس . والله أعلم . وقد يذهب الظن إلى أن « تيم اللات » هذا ربما كان غير « تيم الله » المذكور مقدما ، وهو مردود بما ذكره الشارح فى سياقه نسبه — عند شرح البيت . . .

أرأيت أثر العلم فى مقارنة الروايات بعضها ببعض ؟

ثم أرأيت أثر العقل فى تصحيحه وترجيحه مستنداً على ما يعرف من علم الأنساب وعلم اللغة ، وما يعرف عن مذهب أبى العلاء فى شعره ، وولوعه بالصناعة والتجنيس ؟

ثم أرأيت إلمامه بكافة ما تفرض العقول من احتمالات ؟ ثم احترازه بعد ذلك الذى لا ينكره عليه عارف بقوله « والله أعلم ؟ ! » تلك طريقة أحمد تيمور ، وهى طريقة العارفين المحققين والعلماء الثقاة ، الذين لا يقطعون بالحكم ولا يجزمون بالقول ، وإن بدت الحقيقة فى كلامهم أوضح من الشمس فى رائعة النهار ، لأنهم يعرفون تواضع أولى العلم ، ويؤمنون بأن فوق كل ذى علم عليما .

وعلى هذا النحو من الرواية والدراية يمضى المؤلف فى تحقيق كل خبر ، حتى تأتى على الكتاب كله وليس فى ذهنك إلا العلم الأكيد ، والحقيقة المصفاة .

وقد يستطرد المؤلف حرصاً على إفادة القارئ بما يعزّ عليه تحصيله والوقوف عليه ، وذلك منهج مسلوك عند قدامى المؤلفين فى العربية وأدبها ، ومن أظهر الشواهد على ذلك عندما عرض لقول أبى العلاء فى حادثة بعينها « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً » واستطراده إلى القول بأن جلال الدين عبد الرحمن السيوطى جمع أكثر من ستين اسماً للكلب ، ونظمها فى أرجوزة سماها

التبرّى من معرّة المعرّى » ثم أورد تلك الأرجوزة إتماماً للفائدة ، لعزّة وجودها ثم أعقبها بشرح مفصل يميط اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأتبعه بما استدركه على الناظم من أسماء الكلاب ، وصفاته ، حتى استغرق هذا الاستطراد عدداً كبيراً من الصفحات .

وكذلك استطراده حرصاً على الإفادة إلى إيراد قصيدة عدىّ بن الرّقاع التى مدح بها الوليد بن عبد الملك ، وقد أوردها كاملة ، لأنها — كما يقول — لا توجد برمّتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدى ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها !

* * *

ذلك أحمد تيمور العالم الذى لا يشق له غبار .

أما معرفة أحمد تيمور بالشعر والأدب ، فحسبك دليلا عليها فى هذا الكتاب الفصل الذى عقده لدراسة شعر أبى العلاء ، وقد تكلم فيه عما كرّره من المعانى وعن سرقاته ، وعن مآخذ الشعراء من شعره ، ومقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

وحديثه فى كل موضوع من هذه الموضوعات يدل على قدرة بارعة فى تذوق الشعر ، والغوص فى بحاره ، وسبر أغواره ، والوقوف على أسراره ، وكل ذلك يرفع أحمد تيمور إلى مستوى النقاد الكبار ، ولا تلحظ فى نقده أثراً للتعصب على الشاعر ، ولا رغبة فى مجاملته ، إنما ترى الحق واضحاً والإنصاف كاملا فى ذكر ما للشاعر وما عليه ، وفى هذا الفصل تجد الموضوعية وحدها هى التى توجه ناقدنا الكبير إلى الحكم الصحيح وإلى الرأى الصادق ، وقد يقتنع بكلام غيره فيسجله ، وكثيراً ما يكون الرأى جديداً جديراً بالتقدير والإعجاب

ويستهل تيمور كلامه فى سرقات أبى العلاء بقوله « هذا باب لم أقف عليه مجموعاً » فيسهل على تناوله ، واستيفاء الكلام فيه ، وإنما أذكر منه ما اتفق

لى العثور عليه فى كتب الأدب عند كتابة هذه النبذة ، أو استخرجه الخاطر الكليل أثناء مطالعة ديوانه ! ثم يعرض عليك عدداً كبيراً من أبيات أبى العلاء أفاد فيها من غيره .

واستخراج مآخذ الشعراء بعضهم من بعض ليس من اليسر بالدرجة التى قد يتصورها أكثر الناس ، فإن الأخذ أو الاحتذاء كثيراً مايدق ويخفى ، حتى لا يفطن إليه عامة الأدباء وأكثر خاصتهم ، إذ أن الذين يحاولون الإفادة من غيرهم ، إنما يبذلون جهداً كبيراً فى إخفاء معالم سرقاتهم ، فيخرجونها عن صورتها الأصلية ، ويكسون المعانى كسوة جديدة حتى لا يفطن إلى موضع الإفادة أكثر من يمر بها . ولذلك كانت فطنة تيمور إلى مآخذ أبى العلاء من الشعراء أو مآخذهم من معانيه إحدى الآيات على قدرته الفائقة على النقد والتمييز ومن أمثلة ما أورده من سرقات أبى العلاء قول البحترى :

نشوان يطرب للسؤال كأنما غناه مالكُ طىء أو معبدُ

أخذه أبو العلاء ، وزاد فيه زيادة لا تخفى على الأديب ، فقال :

فما ناح قمرى ولاهب عاصف من الريح إلا خاله صوت سائل

فالبحترى جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل طرب المنتشى من المغنى المجيد ، وأبو العلاء جعله كلما سمع صوتاً من تطريب حمام أو إزعاج أرواح ، خاله صوت سائل لمزيد اعتنائه بالسؤال ، وولعه بالنوال .

ولا يرى أحمد تيمور السرقة إلا فى المعانى المختصة التى عرف أصحابها ، أما المعانى المشتركة فلا سرقة فيها لشهرتها ، وجريانها على ألسنة الشعراء ، فلا فضل فيها لمتقدم على متأخر . فقول أبى العلاء .

منى إليك مع الرياح تحية مشفوعة ومع الوميض وصول

لا يعد من السرقة فى شىء ، وإن سبقه غيره إليه لأن إرسال التحية مع

النسيم أو البرق من المعانى الشائعة التى تداولتها الشعراء ، ولم تزل تتداولها . وإنما يظهر التفاضل بينهم فيها بحسن سبكها وإبرازها فى اللفظ المقبول والتلطف فى تصويرها . . . وما أقرب هذا الرأى من رأى القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى وساطته بين المتنبى وخصومه .

وتبدو عناية أحمد تيمور بدراسة « السرقات » حتى لقد عزم أن يؤلف فيها كتابا ، قال « والكلام فى السرقات الشعرية وأنواعها ، واستيعاب ما قيل فيها ، لا يتسع له مثل هذا المختصر ، فإذا من الله بتوفيقه ، وكان فى العمر مهلة ، وضعنا فيها رسالة تستقل بجمع أشتاتها ، وتفصيل ما أجمل منها » ولا ندرى ألف هذا الكتاب فى فسحة الأجل القصير ، أم اخترمه الأجل دونه وليت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » تظفر به بين ذخائرها ، لتخرجه أثراً نافعاً كعهدنا بسائر آثار أحمد تيمور .

* * *

أما الفصل الذى خصصه للبحث عن عقيدته فقد درس فيه اختلاف الناس فى عقيدة أبى العلاء ، ومعتقده فى الله تعالى ، وفى النبوّات والرسل .

وقد تأمل المؤلف المختلفين فيه ، فوجدهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يكفرونه ويحبونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه ، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الواصلين ، ورووا له الكرامات .

وآخرون متحيرون أمسكوا عنه ، ووكلوا أمره لخالقه .

ثم بدأ أقوالهم فيه ، وعقبها بما ثبت من أقواله . وقد عرض هذه الأقوال بأمانة العالم ، ودقة المحقق ، وعدالة القاضي . وانتهى به البحث إلى إنصاف المعرى مبرئاً نفسه من العصبية ، قال : « إني لم أنتصر له في بعض المواقع جنوحاً إلى عصبية ، أو استرسالا مع هوى . ولكني وقفت في الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لا يخالطه شك . فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن ، والحكم عليه بالزندقة ، خصوصاً وأن ما يدل على إيمانه صريح في لفظه ، والذي يوهم محتمل لوجهين فحمله على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحقّ وأصوب »

ولا شك أن قراءة هذا البحث المستفيض ستفضي بالقارىء إلى مثل ما أفضى بأحمد تيمور إلى الإنصاف المبني على التثبت واليقين في صحة عقيدة أبي العلاء ، لأن للمؤلف الأمين لم يحاول أن يسوغ أمراً غير معقول ، كما أنه لم يحاول أن يخفي نقيصة رماه بها المكفرون . ولكنه نظر بين العدل ، حتى انتهى إلى الرأي الصواب .

* * *

ولأدع القارىء بعد ذلك يجول في هذا السفر الممتع ، ليجني بنفسه ثمرات الجهد المشكور الذي قدمه أحمد تيمور ، وليرى أنها ليست شهوة الكتابة أو شهوة التأليف تلك التي كانت تدفع أحمد تيمور إلى أن يكتب ما كتب ، وإلى أن يؤلف ما ألف ، وإلى هذا العناء الذي أفنى فيه عمره صبياً لم يبلغ الحلم ، ويافعاً في عزة الشباب ، وكهلا في مرحلة النضج والاكتمال ، ثم شيخاً في الوقت الذي تخلد فيه النفوس إلى الدعة .

ولكن كتابة أحمد تيمور فى هذا السفر إنما هى ثمرة من ثمرات العلم الذى خالط عقله ولبه ، والذى سد أمامه منافذ الحياة فلم يعد يرى شيئاً غيره . وكان لا بد لتلك الطاقة القوية أن تبوح بمكنونها ، وتفضى بما استودعته من أسرار الحكمة والمعرفة ، وهى معرفة تتسم بالغزارة والتنوع . وتشهد بذلك الآثار الكثيرة التى خلفها ذلك العالم الجليل فى اللغة والأدب والتاريخ مما دعا جماعة من أفاضل العلماء المعاصرين الذين يقدرون العلم ، ويعرفون أقدار الرجال بالحق إلى أن يؤلفوا لجنة تعنى بالتنقيب عما خلف أحمد تيمور والكشف عن آثاره التى لم يتح لها سبيل النشر فى حياته، لتنشرها فى الناس ، وتتم الغاية التى رمى إليها عالمنا الكبير .

وربما عرض للقارىء سؤال عن تأخر نشر أكثر هذه المؤلفات القيمة إلى ما بعد وفاة كاتبها ، مع ما أكرمه الله تعالى من بسطة فى الرزق ، وما آتاه من الحكمة وبسطة العلم ، ومع الجاه العريض والاسم المذكور الذى كان يدفع كبار الوراقين إلى أن يهرعوا إلى بابه فى طلب نشر آثاره التى لا يشكون فى رواجها وإقبال الناس عليها ، ولا فيما تدرعليهم من الربح والشرف الذى يشتهون .

ولست أجد لتأخير طبع ما تأخر من آثار العلامة أحمد تيمور ومصنفاته إلاّ شدّة تعلقه بالحقيقة ، ومداومة البحث عنها فى مظانّها حتى لا تبدو لأعين الناس إلاّ كاملة كما يراها العالم المتبحر بالتحقيق والتدقيق .. والتحقيق يقتضى الصبر والأناة ، ولا يحسب الوقت حساباً ، فما لم يكمل اليوم يكمل غدا وهو دائماً يحسّ بالحاجة إلى الكمال ، وطلابه صعب عسير ، فلذلك كثرت إضافاته واستدراكاته على ما خطّ قلمه فى أول مرة ، فكان لا يقنع بما كتب ولا بما أضاف ، وإنما كان يطلب المزيد . وما أكثر ما تحتاج الحقيقة إلى

المزيد الذى يجليها ويزيل عنها كلّ لبس وإبهام .

وكان أحمد تيمور لا يقنع بما دون الكمال ، ولم يكن فى الأجل المحدود مجال لزيادة تحقق له ما كان ينشد من الكمال ، وإن بدا عمله كاملا فى أعين الناس ، خالدا على مرّ الزمان .

مصر الجديدة ١٧/١/١٩٦٩ دكتور بدوى طبانة

obeikandl.com

فصل فى نسبه

نسب أبى العلاء :

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم ابن أرقم بن النُّعمان بن عدىّ بن غَطَفان بن عمرو بن ربيخ بن خزيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التَّنوخى المَعَرى . هكذا ساق نسبه ابن خلكان ، وهو أصح ما وجدناه بالمعارضة على مافى كتب الأنساب ، فإن فيما ذكره ياقوت فى إرشاد الأريب إسقاطاً لبعض الأسماء ، واضطراباً فى ترتيب بعضها ، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حرِّف منها ، فإن خزَيمة بن تيم الله جاء فى النسخة المطبوعة — ببولاق : جذيمة بالجيم والذال المعجمة . وما نص عليه فى كتب اللغة والأنساب خُزَيمة بالخاء والزاى مصغراً وتيم الله بن أسد هكذا فى جميع ما وقفنا عليه من الكتب ، وجاء به أبو العلاء فى « سقط الزند » تيم اللات ، فى قوله :

سألته قبل يوم السير مَبْعَثَهُ إليك ديوان تيم اللات ماليتا

وقد يكون هذا تحريفاً فى النسخة إلا أن من خبر شعر أبى العلاء ، ومذهبه فى تكلفه الصناعة والتجنيس ، رجح أنه ما أتى بقوله ماليت ، أى ما نقص بعد قوله اللات ، إلا إرادة للتجنيس . والله أعلم . وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير : تيم الله المذكور مقدماً ، وهو مردود بما ذكره الشارح فى سياقِهِ نسبه عند شرح البيت . على أن فيما ذكره ابن خلكان مالا يسكت عنه أيضاً ، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه فى النسخة

المطبوعة ببولاق ، والنسخة المطبوعة بباريس . ونقل ابن الوردى فى تاريخه عبارة ابن خلكان فأسقط أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ويوافقه مافى « الكوكب الثاقب » لعبد القادر بن عبد الرحمن السّلوى إلاّ أنه أسقط محمد ابن سليمان بدل أحمد . وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد فى ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ .

وجده الأعلى قُضَاعَة بن مالك أبو حى من اليمن ينتهى نسبه إلى قَحْطَان هذا هو المشهور وزعم نُسَّاب مُضَر أنه قضاعة بن مَعَدّ بن عدنان ، وأنّما لكا زوج أمه ، والنسب إلى زوج الأُمّ عادة معروفة عند العرب ، ولعلماء الانساب فى ذلك اختلاف كثير ، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النَّسَّابة لمّا سئل : أنِزَار أكثر أم اليَمن ؟ فقال : إن تعمددت قضاعة فنزار أكثر ، وإن تيمّنت فاليَمن . وعلى القول الأول قول بعضهم :

قُضَاعَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ حِمْيَرِ النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرَ المُنْكَرِ

وعلى القول الثانى قول الكُمَيْت الأسَدىّ يخاطب قُضاعة :

فانّك والتَّحوُّلُ عن مَعَدٍّ كَحَالِيَةٍ تُزَيِّنُ بالعُطُولِ
تُغَايِظُ بالتَّعَطُّلِ جَارَتَيْهَا وبالأَحْمَاء تَبْدأُ والحَلِيلِ
فَمَهْلاً يا قُضَاعَةُ لا تَكُونِى كَقِدْحِ خَرَّ بَيْنَ يَدَى مُجِيلِ
وما مَنْ تَهْتِفِين بِهِ لِنَصْرٍ بأَقْرَبَ جَابَةً لَكِ من هَدِيلِ

وسُمِّى قُضَاعه لانقضاعه عن قومه مع أُمِّه ، أى انقطاعه عنهم ، أو من قَضَعه ، أى قهره . وقيل بل هو اسم منقول ، وأصل القضاعة الفهد .

والتَّنُوخِىُّ نسبة إلى تَنُوخ كصبور ، وتشديد النون خطأ ، وهم قبيلة من اليمن من قضاعة ، سُمُّوا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتَنَخوا بمكان

فى الشام أى أقاموا فيه ، ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجَاعِمَة ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين ، والاختلاف فى ذلك كثير أيضاً . ونقل عن أبى عُبَيْد أنهم تنخوا على مالك بن زُهَير بن عمرو بن فَهْم بن تَيم الله بن أسد ، وعلى مالك بن فَهْم عمّ مالك بن زهير . وذكر الحمدانى أنّ المعرّة من بلاد الشام هى صليبية تنوخ ، بمعنى أنّ بها جمعهم المستكثر . وفى « إرشاد الأديب » . لياقوت أنّ تَيْمَ الله بن أسَد هو مجتمع تنوخ من أهل معرّة النعمان .

وقال أبو يعقوب النحوى فى شرح « سقط الزند » أنّ تَيْم الله هو مجتمع تنوخ فى النسب ؛ ولم يخصّ أهل المعرّة . ويوافقه ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، إلا أنّ أبا يعقوب سمّاه تَيْم اللات كما قدّمنا . وكان شِعَار تنوخ فى حروبهم (وَاصِلٌ واصِلْ) وإليه أشار أبو العلاء فى لزوميّاته بقوله :

فِرَّ من هـذه البرية فى الأر ض فما غير شرّها لك حاصِلْ
فشِعَارِى قاطع وكان شعاراً لتَنُوخٍ فى سالف الدهر واصِل

والشعار : العلامة فى الحرب ، وفى الحديث أنّ شعَار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى الغزو : (يَامَنْصُورُ أَمِتْ أَمِتْ) وهو تَفَاؤُلٌ بالنَّصْر بعدَ الإماتة . واستَشْعَر القَوْمُ إذا تَدَاعَوْا بالشِّعَار فى الحرب .

والمَعَرِّىّ نسبة إلى معرّة النُّعْمان ، وهى بلدة بالشام من أعمال حمص بين حَلَب وحماة ، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم ، بل نُسِبَت فيما ذكروا للنعمان بن بشير الأنصارى ، لأن وَلَداً له مات وهو مجتاز بها ، فدَفنه فيها وأقام أياماً حزينا ، فنسبت إليه لذلك . قال ياقوت فى معجم البلدان . وهذا فى رأيى سبب ضعيف لا تسمّى بمثله مدينة ، والذى أظنّه أنها

مسمّاة بالنعمان الملقب بالساطع . قلت وهو النعمان بن عدىّ ، أحد أجداد المعرى المذكورين فى نسبه ، والذى ذكره ياقوت مقبول . فإن تسمية بلدة باسم أحد قطانهـا المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها . وذهب الشريشى فى شرح المقامات إلى أنها أضيفت لجبل مطلٍ عليها اسمه النعمان ، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل .

ومن شعر أبى العلاء فيمن عيّره باسم بلده :

يعيرنا لفظ المعرّة إنهـــا ... من العرّ قوم فى العلا غُرَبَاء
وهل لَحِقَ التثريب سكّان يَثْرِبٍ ... من الناس، لا، بل فى الرجال غبَاء
وذو نَجَبٍ إن كان ما قيل صادقاً ... فما فيـــه إلاّ مَعْشَرٌ نُجَبَاء

أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه ، على ما زعم هؤلاء الزاعمون فيلزم منه أن التثريب لاحق « لسكان يثرب ، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . ويلزم منه أيضاً أن يكون سكّان ذى نجَبٍ كلّهم نُجَبَاء ، مع أن فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد .

ومن شعره فى اسمه :

وأحمد سمّانى كبيرى وقلّما ... فعلتُ سوى ما أستحق به الذمّا

وقال أيضاً :

رُوَيْدُكَ لو كَشَّفْتَ ما أنا مضمِرُ ... من الأمر ما سمّيتنى أبدًا باسمى
أُطهِّرُ جسمى شاتياً ومُقَيِّظاً ... وقلبِىَ أولى بالطهارة من جسمى

وقال فى كنيته :

عرَفْتُكِ جيِّدًا يا أمَّ دَفْرٍ ... وما إن زلتِ ظالمةً فزولى
دُعِيتُ أبا العَلاء وذاك مَيْنٌ ... ولكنّ الصحيح أبو النزول

يقول ذلك جرياً على عادته فى الخمول والتواضع .

وقد خلط بعض المصريين بين أبى العلاء للمعرى ، وأبى العلاء صاعد اللغوى ، لاتفاقهما فى الكنية واشتهار كليهما باللغة ، فنسب للمعرى كتاباً اسمه النصوص فى قصة ساقها ، وإنما هو لصاعد وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته .

* * *

obeikandl.com

فصل فى بيئته

اسرة المعرى وبيئته

كان أبو العلاء من بيت علم وقضاء ، ورياسة وثراء . تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها ، ونبغ منهم قبله وبعده كثيرون رأسوا وساسوا ، وكان فيهم الكاتب والشاعر . ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم ، ولواذ بهم ، وفزع إليهم فى أمورهم . وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلا لتراجمهم وأخبارهم فى كتابه : « دفع التحرى عن أبى العلاء المعرى » إلا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه ، فاعتمدت فى أكثر ما أذكره هنا على مافى « إرشاد الأريب » لياقوت . و « الكوكب الثاقِب » ، لعبد القادر بن عبد الرحمن السَّلوى ، وتركت كثيراً منهم لعدم تحققى من صحة أنسابهم وألقابهم ، بسبب تحريف النسخ .

فمنهم « جده الأدنى سليمان بن محمد أو أحمد » الشهير بقاضى المعرَّة وولى أيضاً القضاء بحمص ، وبها مات سنة ٢٩٠ هـ وكان أبوه شاعراً .

« عمه أبو بكر محمد بن سليمان » ولى القضاء بعد أبيه ، وفيه يقول الصَّنَوْبَرِىّ .

بأبى يا ابن سليما ... ن لقد سُدْتَ تَنُوخَا
وهم السادة شُبَّا ... نًا لعمرى وشيوخَا
أدركَ البُغْيَة من أضـ ... ـحى بناديك مُنِيخَا
واردًا عندك نِيلاً ... وفراتاً وبليخَا[1]

---

(١) النيل بمصر ، والفرات بالعراق ، وبليخ ـ بفتح فكسر : نهر الرقة .

واجدًا منك متى استصـ رَخَ للمجـد صَرِيخَا
فى زمان غادر الهمَّـــات فى الناس مسوخا

« أبوه عبد الله بن سليمان » ولى القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان ، وتوفى بحمص سنة ٣٧٧ هـ . ومن شعره فى رثاء والده :

إن كان أصبح من أهواه مطَّرَحاً ببابِ حمص فما حزنى بمُطَّرَحِ
لو بان أيسر ما أخفيه من جَزَع لمات أكثر أعدائى من الفرحِ

ورثى أبو العلاء والده بقصيدة نونية أوّلها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزْنِ فما جادنى إلاّ عبوس من الدَّجْنِ

وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه .

« أخوه أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان » كان أَسَنَّ من أبى العلاء ، ومن شعره فى الزهد :

كرم المهيمن منتهى أمـلى لا نيّتى أجر ولا عمـلى
يا مُفَضِـلاً جلَّت فواضلُه عن بُغيتى حتى انتهى أجلى
كم قد أَفَضْتَ عَـلَىَّ من نِعَمٍ كم قد سترت علىّ من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

« أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان » كان شاعراً كأبيه وأخويه أبى المجد وأبى العلاء ، ومن شعره :

قالوا نراه سَلاَ لأنَّ جفونه ضَنَّتْ عشيَّة بَيْننَا بدموعِها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشبُّ فى ينبوعِها

وله فى الشمعة :

وذات لونٍ كلونى فى تغيُّره ... وأدمُع كدموعى فى تحدُّرها
سهرت ليلى وباتت لى مسهَّرة ... كأنَّ ناظرها فى قلب مُسْهرها

قلت : ومهما قيل فى الشمعة ، فليس لقصيدة القاضى ناصح الدين الأرَّجانى ضريب فى هذا الباب ، فقد بَزَّ بها من تقدمه واعياً من بعده إذ يقول :

نَمَّتْ بأسرار ليل كان يخفيها ... وأطلعت قلبها للناس من فيها
سفيهة لم يزل طول اللسان لها ... فى الحيِّ يجنى عليها ضرب هاديها
غريقة فى دموع وهى تحرقها ... أنفاسُها بدوام من تاظيها
تنفست نفس المهجورة ادَّكرت ... عهد الخليط فبات الوجد يبكيها
يُخشى عليها الردى مهما ألم بها ... نسيمُ ريح إذا وافى يُحَيِّيها
كأنها غُرَّةٌ قد سال شارحها ... فى وجه دهماء يزهاها تجلِّيها
أو ضرَّة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حُجِبت قامت تحاكيها
لها غرائب تبدو من محاسنها ... إذا تفكَّرت يوماً فى معانيها
فالوجنة الورد إلاَّ فى تناولها ... والقامة الغصن إلاَّ فى تثنيها
صُفْرٌ غلائلها حمرٌ عمائمها ... سودٌ ذوائبها بيضٌ لياليها
تحيى الليالى نوراً وهى تقتلها ... بئس الجزاء لعمرُ الله تجزيها

ولولا خوف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها .

وأتى بعد أبى العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء ، وأضرب عن ذكر غيرهم اختصاراً ، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرَّة ، وكفر طاب وحماة ، ومنهم من تولى ديوان الإنشاء .

وإنَّما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم فى النسخة .

فصل فى مولده ووفاته وحليته

مولده وصفته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ . وعمى بالجدرى أول سنة ٣٦٧ . غشى يمنى عينيه بياض ، وذهبت اليسرى جملة . وكان يقول لا أعرف من الألوان إلاّ الأحمر لأنهم ألبسونى حين جدرت ثوباً معصفراً ، لا أعقل غير ذلك . وقال فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة : (وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الإبصار كليل ، قَضِىَ علىّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل[1] والرُّبَع ، فلا وجه إذاً لمن زعم أنه ولد أكمه .

وحكى السَّلفى عن أبى محمد الإيادى أنّه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره فرآه قاعداً على سجادة لِبْد وهو شيخ . قال : فدعانى ومسح على رأسى وكنت صبياً ، وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم .

ونقل الثعالبى عن المصيصى الشاعر ، قال : رأيت بمعرّة النعمان عجباً من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فنٍّ من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر .

قال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز

---

(١) البازل من الجمال الذى بلغ تسع سنين ، وليس بعده سن تسمى

(٢) والربع — كصرد : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخر النتاج فهو : هبع ، ومراد ابى العلا : لا أفرق بين الكبير والصغير

فى رحلة الشام ومصر والحجاز ، عند كلامه على القدس وما فيها : « ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية ، وهى فى غاية من الحسن والإتقان ، وكمال البهاء وكمال البنيان وفيها جملة من الكتب ، ورأينا فيها ديوان أبى العلاء المعرى وشرحه ، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين وهما قوله :

قالوا العمى منظـــر قبيح قلت بفقـدى لـكم يهون[1]
والله مافى الأنـــام شىء تأسى على فقده العيـــون

ويناسبه قوله أيضاً :

أبا العـلا يابن سليمانـا إن العمى أولاك إحســـانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى ما أبصرت عيناك إنســـانا

انتهى كلام الشيخ . والبيتان الأولان قد اختلفوا فى قائلهما ، فنسبهما الصفدى فى شرح لامية العجم ج ، ص ٢٨٤ لأبى العلاء كما ذكر الشيخ ، ولـكن روايته (مافى الوجود) بدل (مافى الأنام) .

ونسبهما الشريشي فى شرح المقامات لبشار بن برد ، وروايته (ما فى البلاد) ونسبهما الوطواط (فى الغرر والعرر ص ١٦١) لأبى العيناء ، وروايته (والله ما فى الأنام حر) والله أعلم والبيتان الآخران لم أجدهما فى شعر أبى العلاء ، ولعلهما من شعره المفقود :

فإن قيل : كيف كان يحمـــد الله على العمى ، وهو القائل فى عكسه يتمنى الإبصار :

فليت الليالى ساعدتنى بناظر يراك ومن لى بالضحى فى الأصائل

---

(١) المغرب لابن سعيد ١٨ ، تاريخ آخر ص ٩١ : قالوا العمى منظر قبيح الخ فنسبها لمنصور بن اسماعيل الفقية

فلو أن عَيني متعتها بنظرة إليك الأمانيِ ما حَلتْ بنائل

قلنا : ليس هذا من التناقض فى شىء ، ولكل مقام مقال لأنه أبان فى الأول عن مذهبه ورأيه فى الوجود » وجرى فى الثانى على طريقة الشعراء فى مدائحهم إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تعلم فرق ما بين شعريه فى « سقط الزند واللزوميات لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين : وإن صحت نسبة البيتين السابقين لأبى العيناء كما ذكر الوطواط ، فقد جرى على مثل هذا أيضاً فى قوله للمتوكل وقد سأله عن أصعب ما مر عليه فى فقد بصره فقال له : فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين

ومن قول أبى العلاء فى عماه ، وهو مما رواه له الصفدى :

سواد العين زار سواد قلبى ليتفقا على فهم الأمـــور

يُشير بذلك إلى أن العميان عُوِّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب منه ما ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما وكان أصيب فى بصره فى آخر عمره :

إن يأخذ الله من عينىّ نورهما * ففى فؤادى وقلبى منهما نور[1]

قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل * وفى فمى صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات فى هذا الباب قول بشار بن برد فيمن عيّره بالعمى ، وإن كان من غير هذا المعنى :

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنّى إلى تلك الثلاث فقير

(١) فى إرشاد الاديب ج ٧ — آخر ص ٧٠ : نسبها .... لأبى العيناء

ومن طرائف أبى العلاء أنّه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزى فى شرح ديوان المتنبى ، وقرىء عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال : كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى . وأسمعت كلماتى من به صمم

وكان أبو حزم مكى بن زيان المقرى الضرير الملقب — بصائن الدين يتعصب لأبى العلاء ، ويطرب إذا قرىء عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب ، فسلك مسلكه فى النظم : كذا ذكرا بن خلكان نقلا عن ابن المسترفى .

وفاته :

وتوفى رحمه الله يوم الجمعة ، ثالثَ وقيل ثانىَ وقيل ثالثَ عشر ربيع الأول سنة ٤٤٩هـ بالمعرة[1] فى خلافة القائم العبّاسى ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، ومرض ثلاثة أيام ، ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم فى اليوم الثالث : اكتبوا عنى ، فتناولوا الدُّوِىّ والأقلام ، فأملى عليهم غير الصواب ، فقال لهم القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى :

أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فإنه ميت . فمات من غده ، ودفن فى ساحة من دور أهله . قال القفطى :

أتيت قبره سنة خمسين وستمائة ، فإذا هو فى ساحة من دور أهله وعليه باب ، فدخلت فإذا القبر لا احتفال به ، ورأيت عليه خُبازى يابسة . والموضع على غاية مايكون من الشعث والإهمال .

وقال الذهبى : وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطى ، فرأيت

---

(١) فى تاريخ ابن الشحنة بحاشية الكامل لابن الأثير ج٨ ص ١٦١ : وفاة أبى العلاء وشىء من خبره .

نحواً مما حكى انتهى . ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه :

هـــذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحـــد

ونقل الصفدى عن خط علاء الدين الوداعى قال : زرت قبره بالمعرة رحمه الله تعالى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة ، ولم أر عليه شيئاً من ذلك ، وقد دثر والصق بالأرض ، وعملت هذين البيتين :

قد زرت قبر أبى العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان[1]

رسألت من غفر الخطايا أنه يهدى إليه رسالة الغفـــران

قلت : وقبره معروف إلى اليوم أى سنة ١٣٢٧ بالمعرة ، ولأهلهـــا اعتقاد كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيت فى قارورة عند قبره ، وشرب فى الغد صبيّ به حبسة فى لسانه ، أو بلادة فى ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة أبى العلاء .

ونقل ياقوت فى «إرشاد الأريب» عن ابن الهبّاريّة ، أن السبب فى وفاة أبى العلاء مكاتبات جرت بينه وبين أبى نصر بن أبى عمران داعى الدعاة بمصر ، دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب ، ووَعْده على الإسلام خيراً من بيت المال ، فلما علم أنه يحمل ـ للقتل أو الإسلام ـ سَمّ نفسه فمات . قال ياقوت : وقد ظفرت بتلك الرسائل ، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب اليه ابن الهبّارية . انتهى . وأقول : هذه الرسائل هى التى لخصها ياقوت فى كتابه المذكور ، وقد ظفرت بها أنا أيضاً ، وهى عندى تامة فى نسخة مخطوطة ، وليس فيها شىء من ذلك . وبعد فأىّ إسلام كان يريده منه داعى الدعاة ، وهو رئيس الباطنية فى الدولة الفاطمية ، والداعى إلى مذهبهم ، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨ : معرة حمص هى معرة النعمان نسبت إليه بعد ذلك .

ومن راجع دعواتهم فى خطط المقريزى علم كيف كانوا يأخذون الداخل فى مذهبهم بتشكيكه فى دينه أولا ، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام فى نظر ابن الهبّارية حتى يتبجح بهذه الدعوى ؟ ؟

وكان رحمه الله قصير القامة ، نحيف الجسم ضعيفه ، مشوّه الوجه بآثار الجدرى ، ومُنى فى آخر عمره بالإقعاد ، ولما مات ختم عند قبره فى أسبوع واحد مائة ختمة ، وفى رواية مائتان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً مراثيهم فيه . منها قصيدة طـــويلة لتلميذه على بن همام ، يقول فيها :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة ... فلقد أرقت اليوم من جفنى دما
سيرت ذكرك فى البلاد كأنّه ... مسكٌ تضمّخ منه سمعاً أو فما
وترى الحجيجَ إذا أداروا ليلةً ... ذكراك أوجب فديةً من أحرما

قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرك طِيبٌ والطيب لا يحـــل للمُحرم ، فتجب عليه فدية . ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعرّى بقصيدة نذكر منها ما وقفنا عليه فى « الكوكب الثاقب » لعبد القادر السَّلَوىّ ، وهو :

سمر الرّماح وبيض الهند تشتمر ... فى أخذ ثأرك والأقدار تعتذر
والدهر فاقد أهل العلم قاطبة ... كأنهم بك فى ذا القبر قد قبروا
فهل تُرَى بعد دار العلم عالمة ... أن قد تزعزع فيها الركن والحجر
والعلم بعدك علم فات منصله ... والفهم بعدك قوس ماله وتر

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرّى بقوله :

العلم بعد أبي العلاء مضيّع ... والأرض خالية الجوانب بلقعُ
أودى وقد ملأ البلاد غرائباً ... تسرى كما تسرى النجوم الطُّلَّعُ
ما كنت أعلم وهو يودع في الثَّرى ... أن الثرى فيه الكواكب تودعُ
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه ... أن الجبال الراسيات تزعزعُ
وعجبت أن تسع المعرّة قبره ... ويضيق بطن الأرض عنه الأوسعُ
لو فاضت المهجات يوم وفاته ... ما استكثرت فيه فكيف الأدمعُ
تتصرم الدنيا وتأتي بعده ... أمم وأنت بمثله لا تسمعُ
لا تجمع المال العتيد وجد به ... من قبل تركك كل شيء تجمعُ
وإن استطعت فسر بسيرة أحمد ... تأمن خديعة من يغرّ ويخدعُ
رفض الحياة ومات قبل مماته ... متطوّعاً بأبرّ ما يتطوعُ
عين تسهد للعفاف وللتقى ... أبداً وقلب للمهيمن يخشعُ
شيمٌ تجمله فهنّ بلحده ... تاج ولكنْ بالثناء يرصّعُ
جادت ثراك أبا العلاء غمامة ... كندى يديك ومزنة لا تقلعُ
ما ضيَّع الباكي عليكَ دموعهُ ... إنّ الدموع على سواك تضيّعُ
قصدتك طلابُ العلوم ولا أرى ... للعلم باباً بعد بابك يُقرعُ
مات النُّهى وتعطّلت أسبابه ... وقضى التأدب والمكارم أجمعُ

* * *

فصل فى نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرَّة ، وأخذ النحو واللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب ، وحدَّث عن أبيه وعن جدِّه . ثمَّ رحل إلى بغداد ، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى . هكذا ذكر السيوطى فى « بغية الوعاة » قال : وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى ، وله ذكر فى « جمع الجوامع » وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد ، قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليأخذ عنه ، فلما أراد الدخول عليه ، قال الربعى : ليدخل الإصطبل ؛ فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى . قلت : وهى لفظة معرَّبة ، ذكرها الخفاجى فى « شفاء الغليل » قال : ولذا قال ابن عبّاد : جرّوا الإصطبل فى قصته مع المعرى . ولعل الخفاجى أراد المرتضى ، ووهم فذكر ابن عبّاد . وستأتى القصة .

وذكر أبو الفداء أنَّه دخل بغداد واستفاد من علمائها ، ولم يُتَلْمِذْ لأحد أصلاً ، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلّكان وغيرهما . وكان قد رحل أولاً إلى طَرَابُلُسَ ، وبها خزائن كتب موقوفة ؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم . ثمَّ رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثمَّ رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته . وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨ ، ودخلها ثانياً سنة ٣٩٩ . وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، لا يستقيم مع ما سيرَد عليك فى فصل مؤلفاته ، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرَّة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠ .

وقبل قدومه إلى المعرَّة بمدة يسيرة ماتت أمّه ، وأصيب فى مالٍ له ، فرثاها بقصيدة ميمية طويلة ، وأخرى بائية ، وكتب إلى بغداد يخاطب صديقه

وتلميذه القاضى أبا القاسم على المحسّن التنوخى بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها معتذراً عن مفارقته العراق :

أثارنى عنكمُ أمران والدة
لم ألقها وثراه عاد مفوتا[1]

أحياهما الله عصر البَيْنِ ثمّ قضى
قبل الإياب إلى الذُخرينْ أن موتا

لولا رجاء لقائيها لما تبعت
عَنْسِى دليلاً كسِرّ الغمد أصليتا[2]

ولا صحبتُ ذئاب الإنس[3] طاوية
تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتاً[4]

ولما استقر بالمعرّة لزم داره ، وشرع فى التصنيف والإفادة ، وأخذ عنه الناس ، وقصده الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمّى نفسه : « رهن المحبسين » يعنى حبس نفسه فى المنزل، وحبس بصره بالعمى .

وما فتىء وهو بعيد عن بلده ، يحنّ إليه ويشتاقه ، ويذكره فى شعره ، وفيه يقول :

سرى برق المعرّة بعد وهْن فبات برامة يصف الكلالاَ
شجا رَكْباً وأفراساً وإبلاً وزاد فكاد أن يشجو الرحالاَ
بها كانت جهادهم مهارى وهم مُرْدًا وبُزْلُهُم فصالاَ

(١) المسفوت : القليل البركة . (٢) الإصليت : الماضى الصقيل .
(٣) يريد بذئاب الإنس : اللصوص . (٤) المسبوت : من السبات ، وهو النعاس .

وقال :

فيا برق ليس الكَرْخُ دارى وإنمّا رمانى إليه الدهر منذ ليـــالى
فهل فيـــك من ماء المعرّة قطرة تغيث بهـــــا ظمآن ليس بسال

وقال أيضاً :

متى سألتْ بغداد عـــنى وأهلها فإنّى عن أهـــل المواصم سَأَلُ
وماء بلادى كان أبجـــع مشرباً ولوْ أنّ ماء الكرخ صهباء جريالُ

على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد ، عزّ عليه فراقها ، وفراق أوِدّائِه فيها، فقال من قصيدة يجيب بها على النهاوندى :

وردنا ماء دجـــــلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيـــلا
وزلنا بالغليـــــل وما اشتقيها وغاية كلّ شـــــىء أن يزولا

ونظم فى توديعها قصيدة يقول فيها :

أودّعكم يا آل بغـــداد والحشا على زفرات ما يَبِينَ من اللـذع
وداعَ ضَنٍ[1] لم يستقلّ وإنّما تحامل من بعـد العشاء على ظلْع
فبئس البديل الشام منـكم وأهله على أنّهم قـومى وبينهمُ ربعى
ألا زودونى شربـة ولو انّنى قدرت إذا أفنيت دجـــلة بالجرع
وأنّى لنـا من ماء دجـلة نُغْبَةً على الِخمْسِ من بَعد المفاوز والرِّبْع

---

(١) يقال ضنى كرضى وضنن : مرض

وقال من أخرى :

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم رجال ولكن رب نصح مضيّع
فلا كان سيرى عنكمُ رأى ملحد يقول بياس من معاد ومرجع

أى : لا كان سيرى عنكم ذهاباً بلا إياب . أخرجه مُخْرَجَ الدعاء .

* * *

فصل فى تلاميذه

قرأ على أبى العلاء ببغـــداد والمعرّة كثيرون ، واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به ، والانتساب إليه فى العلم ؛ كأبى المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهرى ، وأبى تمام غالب بن عيسى الأنصارى ، والخليل بن عبد الجبار القزوينى ، ومحمد بن أحمد بن أبى الصفر الأنبارى وغيرهم . وممّن روى عنه : القاضى أبو القاسم على بن القاضى المحسّن بن القاضى التنوخى ، وكان من أقرانه ، أخذ عنه وهو ببغداد ، وصحبه واتصلت صحبته بالتبريزى بسبب أبى العلاء.

ولد القاضى المذكور سنة ٣٦٥ بالبصرة ، كما فى « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، أو فى سنة ٣٥٥ كما فى « فوات الوفيات « لابن شاكر ،الأول أصحّ . وتوفى سنة ٤٤٧ ، قبل وفاة أبى العلاء بنحو سنتين . وكان صدوقاً فى حديثه ، وقبلت شهادته عند الحكام فى حداثته ، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره ، وتولى قضاء عدة نواح ، منها المدائن وأعمالها ، وإذْربيجانُ والبَرْدَان وغير ذلك . وكانت فيه دعابة ، يروى أنّ إسكافاً اجتاز بداره ـ وهو نائم ـ فصاح شراك النعال وأزعجه بصياحه ، فقال لغلامه :

إجمع كل نعل فى الدار وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها ، ثم نام واشتغل الإسكاف بإصلاحها إلى آخر النهار ، فلما كان اليوم الثانى فعل كذلك ، ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فلما دخل قال له : أمس أصلحت كلّ نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ، ياغلام ، قفاه .

وسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر ابنتك ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع

القاضى وضرب بالسياط ، فقال لها : أصار صفحى تاريخاً لك ما وجدت تاريخاً غيره ؟

وممّن قرأ على أبى العلاء ، وهو ببغداد : الأديب المشهور بابن فورجة البروَجردىّ ، ذكر ذلك السيوطى . وهو صاحب « الفتح على أبى الفتح » ، و « التجنّى على ابن جنى » ، يرد فيهما على ابن جنى فى شرح شعر المتنبّى . واختلفوا فى اسمه فقيل محمد بن حمد ، وسمّاه مجد الدين الشيرازى فى كتابه « البلغة فى أئمة اللغة » : حمد بن محمد ، ومن شعره :

أيها القـــاتلى بعينيه رفقـاً إنمـا يستحق ذا من قـــلا كا
أكثر اللائمـــون فيك عتابى أنا واللائمـون فيـك فدا كا
إن لى غـــيرة عليك من اسمى إنه دائمـــاً يقبّـــلُ فا كا

قال السيوطى : هذا الشعر يؤيدّ أن اسمه حَمَد . واختلفوا أيضاً فى اسم جدّه فورجة ؛ فقال السيوطى : بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم . وقال ابن شاكر فى « فوات الوفيات » : فوزجة بالفاء المضمومة ، وبعد الواو والزاى جيم مشدّدة . وفى النسخ خلط فى ميلاده ووفاته .

وأشهر تلاميذ أبى العلاء : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، صاحب المصنفات النفسية ، كشرح الحماسة والمعلقات وتهذيب ألفاظ ابن السكيت وغيرها ، ولد سنة ٤٢١ . وتوفى فجأة ببغداد سنة ٥٠٢ . ودخل مصر فى عنفوان شبابه ، ثمّ استوطن بغداد ، ودرس الأدب بالنظامية ، وكان إماما فى اللغة ثقة فيها ، إلا أنه كان مستهتراً بالشراب . وكان سبب رحلته إلى أبى العلاء أنه تحصل على نسخة من كتاب « التهذيب » للأزهرى فى اللغة عدة مجلدات ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدلوه على أبى العلاء ، فجعل الكتب فى مخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرّة ، ولم يكن له

ما يستأجر به مركوبا ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها .

وكانت ببعض الوقوف ببغداد ، إذا رآها من يعرف صورة الحال ظن أنها غريقة ، وليس بها سوى عرق التبريزى .

وقال العلامة عبد الهادى نجا الأبيارى من شيوخ هـذا العصر المتوفى سنة ١٣٠٥ ، فى كتابه « القصر المبنى على حواشى المغنى » عند كلامه على أبى العلاء المعرى : « ومما يدل على فضله ، أن الخطيب أبا زكريا يحيى التبريزى قرأ الأدب عليه ورحل إليه من تبريز ، وسيدى عبد القادر الجيلانى ، قرأ الأدب على التبريزى هذا فالشيخ شيخ شيخ الجيلانى . والله أعلم » .

قلت : والذى قاله الشيخ من قراءة الجيلانى الأدب على التبريزى صحيح ، ذكره ابن شاكر فى ترجمة الجيلانى من « فوات الوفيات » .

فصل فى مبلغ علمه وذكائه

اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، إماماً فيه ، حاذقاً بالنحو والصرف ، يسبح وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة أما اللغة وحفظ شواهدها وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب ، وحَسْبكَ أنهم إذا عـــدُّوا من رزقوا السعادة فى أشياء ، لم يأت بعدهم من نالها ؛ عدُّوا ممّن تفرّد بسعة الإطلاع على اللغة . وكلامه الذى أورده فى « رسالة الغفران » فى بيتى النمر بن تولب ، وتغييره القوافى وتنزيلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء ، يدلّ على اطلاع كبير ، وتمكن من اللغة والأدب قل أن يتفق نظيره لشخص .

وخلاصة ما ذكره أنّ — خلفاً الأحمر — تذاكر يوما مع أصحابه فى قول النمر :

أَلَمَّ بصُحْبَتِى وهُم هُجُـوع خيالٌ طارقٌ من أمِّ حِصْنِ

لهـا ما تشتهى عســلاً مُصَفى إذا شاءت وحوّارى بسمن

فقال لهم : لو كان موضع أم حصن : أم حفص ؛ وما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا . فقال : حُوَّارى بلص ، يعنى : الفالوذج والحوارى : الدقيق الأبيض وهو اللباب . ففير أبو العلاء قوافى البيتين على حروف المعجم ، وربّما أتى فى الحرف بالقافيتين والثلاث ، ولا يتفق هذا إلاّ لمن رُزِق حَظًّا وافراً من الاصطلاح ، والمسألة مبسوطة فى الرسالة ، فارجع إليها إن شئت لتعلم صحّة ما قلناه .

وذكر غير واحد من اللغويّين أنّ أبا العلاء لمّا دخل بغداد اعترضوا عليه فى حلقة ابن المُحَسِّن — لقوله :

ويُوشع ردَّ يوحى بعضَ يوم وأنت منى سفرت رددْت يوحَا

ويوح ويُوحى بضمِّهما من أسماء الشمس، فقالوا له : صحفت إنّما هو بوح — بالباء الموحّدة ، واحتجُّوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السِّكِّيت فقال لهم : هذه النسخ التى بأيديكم غيَّرَها شُيوخكم ، ولكن أخرجوا ما فى دار العلم من النسخ العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدةً كما قال .

واحتجّ به ياقوت فى « معجم البلدان »فى تصحيح لفظة الضُّراح ردًّا على من قال إنّها بالصّاد المهملة ، فقال : ألاَ ترى إلى أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرِّى كيف جمع بين الضُّرَاح والضَّريح إرادة للتّجنيس والطباق فقال :

لقد بلغ الضُّرَاحَ وساكنيه نثاك وزار من سكن الضَّريحا

والنَّثَا مقصوراً وبتقديم النون على الثاء : الخبرُ . ومن غريب ما يروونه عنه فى ذلك أنّه دخل على الشريف أبى القاسم المرتَضَى أخى الشريف الرَّضِىِّ ، وهو ببغداد ، فعَثَر برجل فقال : من هذا الكلب ؟

فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً وسمعه المرتضى فأدناه واختبره فوجده عالماً مُشْبَعاً بالفطنَة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً . قلت : ومن هذا هرب جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فجمع أكثر من ستّين اسماً للكلب ، ونظمها فى أرجوزة سماها : « التبرِّى من معرّة المعرِّى » رأيت أن أوردها هنا إتماماً للفائدة لعزّة وجودها ، ثمّ أعقبها بشرح يُميطُ اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأتبعه بما استدركته على الناظم من أسماء الكلب ، وهى :

لله حَمْدٌ دائمُ الوَلِىِّ ثمَّ صلاتُه على النبىِّ

قد نقل الثقاتُ عن أبى العلا لما أتى للمُرْتَضَى ودَخَلاَ

قال له شخص به قـــد عَثَرَا ... من ذلكَ الـكلبُ الذى ما أبْصَرا

فقال فى جـوابه قولاً جَلِى ... معبِّرًا لذلكَ المُجَهِّـــــلِ

الـكلب من لم يدر من أسمائه ... سبعين مومياً إلى علائه

وقد تَتَبعتُ دواوين اللُّغـهْ ... لعلَّنى أبلُغُ من ذا مَبْلَغَهْ

فجئت منها عـــدداً كثيراً ... وأرتجى فيما بَـــقِى تيسيراً

وقد نظمتُ ذاك فى هذا الرَّجَزْ ... ليستفيدها الذى عنهـــا عَجَزْ

فَسَمِّهِ هُديت : بالقـــبرِّى ... ياصـــاح من معرّةِ المعرِّى

١ـ من ذلك الباقعُ ثمّ الوازِعُ ... والـكلبُ والأبْقَعُ ثُمّ الزارعُ

٢ـ والخيطل السُّحامُ ثمّ الأسـدُ ... والمُرْبِجُ المجوز ثمّ الأعْقَدُ

٣ـ والأعْنَقُ الدَّرْبَاسُ والعَمَلَّسُ ... والقُطْرب الفُرنى ثمّ الفَلْحَسُ

٤ـ والثَّغِمُ الطلْقُ مَعَ العَوَّاء ... بالمـــدِّ والقَصْرِ على السَّوَاءِ

٥ـ وعُدَّ من أسمـــائه : البصيرُ ... وفيه لُغزٌ قاله خَبـــيرُ

٦ـ والعُرْب قد سَمَّوْهُ قِدماً فى النَّفير ... داعى الضَّمِيرْ ثمّ هاء فى الضَّمِيرْ

٧ـ وهكذا سمَّوْه داعِىَ الـكَرَمْ ... مشـيِّد الذِّكْر متمِّم النِّعَم

٨ـ وتَمْتَمٌ وكالِـــبٌ وهِبْلَعُ ... ومنذرٌ وأهـوجٌ وهِجْرَعُ

٩ـ ثمّ كُسَيْبٌ عَلَمُ المـذكَرِ ... مِنهُ عن الهمزة واللام عَرِى

١٠ـ والقَلطِىُّ والسَّلُوقى نِسْبَه ... كذا النَّصِيبىُّ بذاك أشْبَهْ

١١ـ والمستطيرُ هائج الـكلاب ... كذا رواه صاحبُ العُبَابِ

١٢ـ والدِّرْصُ والجِرْوُ مُثَلثُ الفا ... لولد الـكلب أسَامٍ تُلفَى

١٣ـ والسمعُ فيما قاله الصُّـولِىُّ ... وهو « أبو خالد » المـكنىُّ

١٤ـ ونقلوا الزاهدُونَ للـكلابْ وكلبةٌ قيل لها أيضا : كسابْ
١٥ـ مِثْلُ قَطـامِ عَلَماً مَبْنِياً وكَسْبَةٌ كذاك نقلاً ريَّا
١٦ـ وخذْ لها العَوْلَـقَ والمُعاوِيَهْ ولَعْوَة وكن لِذَاكَ رَاوِيَهْ
١٧ـ وَوَلَدَ الـكلابِ من الذئبة سَمْ عُسْبُورَةً وإن تُزِلْ هالا تُلَمْ
١٨ـ وألحقوا بذَلكَ الخَيْهَفَعى وإن تَمُدَّ فهْو جاء سمْعَا
١٩ـ وَوَلَدُ الـكلبة من ذِئبٍ سُمِي وثعلب فيما رَوَوْا بالدَّيْسمِ
٢٠ـ ثمّ كلابُ المـاء بالهراكلهْ تدعى وقس فردًا على ماشا كَلَهْ
٢١ـ كذاك كلب المـاء يدْعى القُنْدُسَا فيما روَى ابنُ دِحيةٍ قد انتَسَى
٢٢ـ وكلبة المـاء هى القُضَاعهْ جميع ذاك أثبتوا سَمَاعـهْ
٢٣ـ وعدَّدُوا من جنسه ابنَ آوَى ومن سُمَاه دَأْلٌ قَدْ ساوَى
ودُئلٌ ودُؤْلٌ والدَّأَلانْ وافتح وضُمَّ مُعْجِماً للذَّأَلان
كذلك العِلَّوْضُ ثمَّ النَّوْفَلُ واللغوض السُّرْحُوب فيما نَقَلوا
والوَعْ والعِلَّوْشُ ثمَّ الوَعْوَعُ والشَّنْبَرُ الوَأْواه فيما يُسْمَعُ
هذا الذى من كتب جَمَعْتُهُ وما بَدَا من بعد ذَا أَلْحَقْتُهُ
والحمد لله لها ختـــــامُ ثمَّ على نبيِّه السَّـــلامُ

تمت الأرجوزة . ولنشرع فى شرحها معتمدين على مادونوه فى كتب اللغة والأمثال والحيوان ، وقد وضعنا أرقاماً للأبيات يرجع إليها فى هذا الشرح ، فنقول :

(١) الباقِـع والأبقَعُ من الـكلاب الذى خالط بياضه لونٌ آخر ، والبَقَع فى الطير والـكلاب بمنزلة البَلَـق فى الدواب ، وقول الأخطل :

كلوا الضَّب وابن الغيْرِ والباقع الذى يَبيتُ يَعُسُّ اللَّيْلَ بين المقابر

قيل أراد الكلاب ، وقيل غير ذلك ، والعرب تقول : لا خير فى بقع الكلاب . وترى التَّبْقيعَ هُجْنَةً فيها ، وخير الكلاب عندها ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد ، وخير كلاب الصيد البيض . وفى المخصص : البقعُ بياض فى صدر الكلب الأسود ، وهى البُقْعَة ، وكلبٌ أبقع والجمع بُقْعَان والوازع الكلب لأنه يَزَعُ الذِّئْبَ عن الغنم أى يكفُّه ، ويقال له ابن وازع أيضاً . والكلب كل سَبُع عقور ، ثمّ غلب على هذا النابح ، كما فى القاموس وقال شارحه : قال شيخنا : بل صار حقيقة لغويّة فيه لا تحتمل غيره ، ولذلك قال الجوهرى وغيره :

هو معروف : ولم يحتاجوا لتعريفه لشهرته . انتهى . وهو من الأسماء التى تَسَمَّتْ بها العرب ؛ فمن مشهوريهم فى ذلك :

كُلَيْبُ بن ربيعة من بنى تَغْلِب بن وائل ، وهو الذى ضربوا به المثل ، فقالوا : أعزُّ من كليب وائل ، وقامت الحرب بسببه بين بكر وتغلب ، وكان اسمه فى الأصل وائلا ؛ وإنما سمّوْهُ كليباً ، لأنه بلغ من عزِّه أنه كان يحمى الكلأ بقرب حماه ، ويجير الصَّيد فلا يُهاج . وكان إذا مرّ بروضة أعجبته ، أو غدير ارتضاه ، كنَّع كُليباً ثمّ رمى به هناك ، فحيث بلغ عواؤه كان حِمىً لا يُرعى ، فلمَّا حمى كليبه المرمى الكَلاء قيل : أعزّ من كليب وائل . ثمّ غلب هـذا الاسم عليه حتى ظنّوه اسمه ؛ كذا فى مجمع الأمثال للميدانى . وقوله :

كنع هو بمعنى بضَّع وكوَّع أى ضربه فصيَّره مُعَوَّج الأكواع .

ومنهم كليب بن حبشية بن سَلُول فى خُزَاعة . وكلب بن عمرو بن لؤَى فى بَجيلَة . وبنو كلب ، وبنو أكلب ، وبنو كلبة وبنو كلاب ، قبائل معروفة ، منها فى قريش كلاب بن مرّة ، وفى هَوَازِن كلاب بن ربيعة

ابن صَعْصَعة . أمّا ذو الكلب فهو عَمْرو بن العجلان أحد شعراء هذيل لُقِّب به لأنّه كان له كلب لا يفارقه . وعائد الكلب هو عبد الله بن مصعب ، كان والياً للرشيد على المدينة ، لقب بذلك لقوله :

مالى مَرِضتُ فلم يَعُدْنى عائدٌ منكم ويمرض كلبكم فأعود

وهو أحد من نطقوا فى الشعر بكلمات غابت شهرتها عليهم ، فلقبوا بها ، وربما جمعت ما وقفت عليه من ذلك فى رسالة مستقلة . والسبب الذى دعا العرب إلى تسمية أبنائها بمثل هذه الأسماء المستكرهة كالكلب والذئب والحجر والصخر ، هو ما ذكره الراغب وغيره أن أعرابياً سئل : لم سموا أبناءهم بالأسماء القبيحة ، وعبيدهم بالحسنة ؟ فقال لأن أبناءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لأنفسهم . قلت : وقد فصّل الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر المشهور بابن قيم الجوزية مذاهب العرب فى تسمية أبنائها تفصيلا ترتاح إليه النفس ويثلج به الفؤاد ، فقال فى آخر كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » عند الكلام على الفأل والطِّيَرَة ، مانصه : وكانت لهم مذاهب فى تسمية أولادهم : فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم ، نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ، ومنهم من تفاءل بالسلام كتسميتهم . مسالم وثابت ونحوه ، ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ، ومنهم من قصد للتسمية بأسماء السباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليب وذئب وضرغام وشبل ونحوها ، ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ، ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأة تمخض ، فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه ، كائناً ما كان ، من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبى أو أو حشيش أو غيره . انتهى المقصود منه .

وأمّا ما سُمّى بالسكاب أو أضيف إليه من البقاع والسيوف والأنهار وغيرها ، فقد تركنا ذكره طلباً للاختصار ، ونقتصر منها على قرية بحلب تسمّى جُبّ السكاب ، تعدُّ من العجائب — لاشتهارها ببئر فيها إذا شرب منها المسكاوب قبل أن يأتى عليه أربعون يوماً برأ . كذا ذكر صاحب القاموس فى مادة ج ب ب . وقال ياقوت فى معجمه : حدثنى مالك هذه القرية ابن الإسكافى ، وسألته عما يحكى عن هذا الجب وأن الذى نهشه السكاب السكلب إذا شرب منه برأ ، فقال : هذا صحيح لاشك فيه . قال : وقد جاءنا منذ شهور ثلاث أنفس مكلوبين يسألون عن القرية ، فدلوا عليها ، فلما حصلوا فى صحرائها اضطرب أحدهم وجعل يقول لمن معه : اربطونى لئلا يصل إلى أحدكم منى أذى ، وذلك أنه كان قد تجاوز أربعين يوماً منذ نهش ، فربط ، فلما وصل إلى الجب وشرب من مائه مات . وأما الآخران فلم يكونا بلغا أربعين يوماً ، فشربا من ماء الجب فبرآ قال : وهذه عادته ، إذا تجاوز المنهوش أربعين يوماً لم تكن فيه حيلة . إلى أن قال : وهذه البئر هى بئر القرية التى يشرب منها أهلها . انتهى :

قلت : ولا أدرى ما فعل الله بالقرية والبئر ، وإنما خصصتها بالذكر دون غيرها تنبيها الأطباء هذا العصر ، لعلهم يتوقفون للبحث والتنقيب عنها ، حتى إذا وجدوها امتحنوا ماءها ، فربما كان فيه من الأملاح أو غيرها مامن خاصيته شفاء هذا المرض ، وعسى ألا تأخذهم حمية الجاهلية فيضربوا بهذا القول عرض الحائط بغير حجة سوى ما اعتادوه من احتقار أقوال علمائنا المتقدمين ، فلولا تجربة هذا الماء وظهور نفعه فى المصابين قبل أن يجاوزوا أربعين يوماً ، أى قبل استفحال الداء وتمكنه منهم ، لما استفاض خبره ، ونقله هؤلاء الأعلام ، ولا فائدة لمثلهم فى التواطؤ على الكذب فى مثله .

والزارع بتقديم الزاى على الراء ، السكلب ، وفى القاموس : زارع اسم كلب ، ومنه قيل للسكلاب : أولاد زارع ، وفيه أيضاً فى مادة (ذرع) بالذال

المعجمة : أولاد ذارع ، وذراع بالكسر : الكلاب . وفى المخصص :قال على ابن حمزة : ابن زارع وابن ذراع وابن وازع : الكلب ، وربما سمى : وازعاً أيضاً . انتهى .

الخَيْطَل — بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثنّاة التحتية ، وفتح الطّاء المهملة وبعدها لام : الكلب . والسُّحَام ـ بضم السين المهملة ، وبعدها حاء مهملة ، مأخوذ من السحْمَة وهى السواد ، والذى يؤخذ من نصوص كتب اللغة أنّه عَلَمٌ عَلَى كَلْب معيَّن لا اسم جنس للكلاب . قال الجوهرى : سُحَام اسم كلب ، واستشهد بقول لبيد :

فَتَقَصَّدَتْ منها كَسابِ فَضُرِّجَتْ بَدمٍ وغُودِرَ فى المَكَرِّ سُجَامُها

ووافقه فى ذلك شُرّاحُ المعلقات ، وهو ظاهر من سياق البيت . وفى لسان العرب : سُحَيْمٌ وسُحَامٌ من أسماء الكلاب ، ثم أنشد بيت لبيد

وذهب صاحب القاموس إلى أن صوابه بالمعجمة قال : وَوَهَم الجوهرى . قلت : لا وَهَم ، فقد ذكر بعض شرّاح المعلقات أنه يروى بهما ، ووافقه الميدانى فى مجمع الأمثال عند تفسير قولهم (هَنيئاً لسُحَام ما أكل) فإنه أورد البيت ثم قال : ويُروى سُخَامُها ـ بالخاء . وهـذا المثل يضرب فى الشماتة بهلاك العدو . وقول الزَّوْزَنى فى شرح المعلّقات انه اسم كلبة ، يخالف ما أجمعوا عليه من أنه اسم كلب ذكَرٍ . والله أعلم .

والأسد لم أعثر فى كتب اللغة على أنه يطلق على الكلاب ، وإنما الذى فيها أن الكلب من أسماء الأسد . والعُرْبُج بضم العين المهملة ، وسكون الراء وضمّ الباء الموحدة وبعدها جيم : الكلب الضخم ، كما فى القاموس ، أو كلب الصيد ، كما فى اللسان . والعَجُوز بفتح العين المهملة وضمّ الجيم

وبعدها واو ساكنة وزاى : من أسماء الكلب . والأعقد ـ بالعين المهملة ، والقاف ، والدال المهملة : الكلب لانعقاد ذَنَبه ، جعلوه اسماً له معروفاً قال جرير :

تَبُولُ على القُتَاد بناتُ تَيْم مع العُقْدِ النَّوَابح فى الدِّيارِ

قالوا : ليس شىء أحبّ إلى الكلب من أن يبول على قتادة أو على شجيرة صغيرة غيرها . وروى الجاحظ فى « كتاب الحيوان » لمساور بن هند يهجو قوماً بأكلون الكلاب :

إذا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلاماً فبشِّرها بلُؤْمٍ فى الغلامِ
يُخرِّسُها نساء بنى دُبَيْرٍ بأخبثِ ما يكون من الطَّعامِ
ترى أظفارَ أعقدَ مُلْقَياتٍ بِرَثْنِها عَلَى وَضَمِ الثُّمامِ

يُخرِّسها أى يصنعن لها الخُرسة وهى طعام النُّفَساء ، ودَبير بالتصغير أبو قبيلة من أسد ، والوَضم بالتحريك ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير ، والثُّمام نبت ضعيف لا يطول كانوا يفرشونه تحت الأسافى ونحوها ، وربما مَشَوْا به وسدُّوا خَصاصَ البيوت .

(٣) الأعْنَقُ ـ بالعين المهملة والنون والقاف : الكلب فى عنقه بياض ، ويقال للقلادة التى توضع فى عنق الكلب : مِعنَقة ، وقد أعْنَقَهُ إذا قلَّدَه إياها ، ويقال لها أيضاً الجِدَّة بالكسر ، وكذلك الأُرْبَة بالضمّ قلادة الكلب التى يقاد بها .

والدِّرْبَاس ـ بكسر الدال المهملة وسكون الراء وبعدها باء موحدة وألف وسين مهملة : الكلب العقور . والعَمَلَّس بفتح العين المهملة والميم واللام المشددة ، وبعدها سين مهملة : كلب الصيد كما فى القاموس ، أو

الكلب الخبيث كما فى اللسان . على أنه أنشد بعد ذلك قول الطِّرِمَّاح يصف كلاب الصيد :

يُوَزِّعُ بالأمراسِ كلَّ عَمَلَّسٍ من المطعماتِ الصَّيد غيرِ الشَّواحِنِ

وقال فى تفسير يوزع : يكف ، ورواه فى مادة ودع : يودّع ، ثم قال : أى يقلدها وَدَعَ الأمراس .

والقُطْرُبُ ـ بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء ، وبعدها باء موحدة : الصغير من الكلاب . وفى المخصّص : القطْربُ أى بفتح القاف والراء . . صغار الكلاب ، زعموا أنَّ الواحد قُطْرُب ، وليس هو جمع بل اسم للجمع . انتهى ملخّصًا . .

والفُرْنِىَّ ـ بضمّ الفاء وسكون الراء وبعدها نون وياء مشددة : الكلب الضخم ، قال العَجَّاج :

وطَاحَ فى المَعْرَكَةِ الفُرْنِىُّ

قال ابن بَرِّىٍّ : أراد الضّخم من الكلاب ، وقال غيره : إنَّما أراد الرجل الغليظ الضخم .

والفَلْحَسُ بفتح الفاء وسكون اللام وفتح الحاء المهملة وبعدها سين مهملة : الكلب . قال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : ويقال للكلب : فَلْحَس ، وهو من صفات الحرص والإلحاح ، ويقال : فلان أسأَل من فَلْحَس . وفَلْحَس رجل من بنى شيبان كان حريصاً رغيباً ومُلحِفاً مُلِحًّا ، وكل طُفَيْلِى فهو عندهم فَلْحَسُ . انتهى .

قلت : وإنّما سمّوا الكلب بذلك لأنه موصوف عندهم بالحرص والإلحاح ، حتى قالوا فى أمثالهم : (ألَحُّ من كلْب)

(٤) الثَّغِم : بفتح الثاء المثلثة وكسر الغين المعجمة وبعدها ميم :

الكلب الضَّارى . والطَّلْسُ بفتح الطاء المهملة وسكون اللام وبعدها قاف : كلب الصيد .

والعَوَّاء بالعين المهملة وبالمـــدّ ، ويقال أيضاً بالقصر : الكلب يعوى كثيراً . وللوزير أبى الوليد إسماعيل بن حجّاج الأعلم الأشبيلى فى فتى عضّه كلب فى خدّه :

وأغْيَدَ وضّاح المباسم باسم ... إذا قامر الأرواح ناظِرُه قَمَرْ
تَعَمَّدَ كلبٌ عَضَّ وجْنَتِهِ التى ... هى الورد إبقاعا وأبقى بها أثَرْ
فقلت لشُهْب الأُفق كيف صماتكم ... وقد أثّر العَوّاء فى صفحة القَمَرْ

هكذا رواها صاحب « نفح الطيب » فى موضع من كتابه منسوبة للوزير المذكور ، وأعادها فى موضع آخر منسوبة لأبى القاسم بن هشام ، وروى المحاسن بدل المباسم ، والأسياف بدل الأرواح . والله أعلم .

والصُّمات ، بالضم والصَّمت والصُّموت : السكوت ، يشير بذلك إلى قولهم : لا يضر القمر نبح الكلاب ، وأصل المثل « لا يضرّ السحاب نبح الكلاب » لأن كلاب البادية تتأذى بالمطـــر لمبيتها أبداً تحت السماء ، فإذا أبصرت غيما نبحته ، لأنّها قد عرفت ما تلقى من مثله . وتنبح أيضا القمر ، لأنه إذا طلع من المشرق يكون كقطعة غيم ، ومنه قول بعضهم :

يا جابرَ بن عدىٍّ أنت مع زُفَرٍ ... كالكلب ينبح من بُعدٍ على القمر

(٥) البَصير ، بفتح الباء الموحدة ، وكسر الصاد المهملة ، وبعدها ياء ساكنة وراء مهملة ، لم يذكره القاموس ، وأنشد صاحب اللسان لتَوبة :

وأشرفُ بالقُورِ اليَفَاعِ لَعَلَّنِى ... أرى نارَ لَيْلَى أوْ يَرانى بَصِيرُها

ثم قال نقلا عن ابن سيّده : يعنى كلبها ، لأن الكلاب من أحدّ العيون بصراً . انتهى .

قلت : وقد جاء فى أمثالهم « أبصر من كلب » . وقول الناظم : « وفيه لغز قاله خبير » يريد بذلك قول الحريرى فى المقامة الثانية والثلاثين فى فتاوى فقيه العرب. قال : «أيُستباحُ ماء الضرير ؟ قال: نعم ، ويُجتنَبُ ماء البصير » فالمتبادر أنّ الضرير هو الأعمى وهو لا يستباح ماؤه الذى يملكه بدون علمه ، ومراد الشيخ به : حرف الوادى ، وكذلك المتبادر فى البصير أنه ضدّ الأعمى ، وماؤه إذا أخذ للوضوء باطلاعه لا يُجتنب ، وإنما أراد به الكلاب: هكذا فسّره الحريرى نفسه فى المقامة .

(٦) هكذا رواية البيت فى نسختين من الأصل ، ولم يظهر لى وجه تسمية العرب للكلب فى نفيرهم بداعى الضمير أو داعى الضميرة كما يُفهم من سياقه ، فلعلّ الكلام محرّف ، وقد دخل البيت التذييل ، وهو من علل الزيادة ودخوله فى الرجز مغتفر للمولدين .

(٧) قوله : داعى الكرم ، إنما سمّوه بذلك على ما يظهر ، لأن نباح الكلب يبشرهم بقدوم الضيف ، ويرشده إلى منزلهم ، فيكون سبباً للكرم وداعياً إليه . وقد كان الرجل من العرب إذا ضلّ وتحيّر فى الليل ، فلم يدر أين البيوت ، أخرج صوته على مثل النباح ، فتسمعه الكلاب وتظنه كلباً ، فتنبح . فيستدل بنباحها ويهتدى إلى المكان . وهو الذى تسميه العرب بالمستَنْبِح . وأنشد أبو على القالى فى أماليه :

ومُبدٍ لى الشَّحْنَاء بينى وبينَه دعوتُ وقد طال السرى فدعانى

يعنى كلبا ، ويريد نبحت له فنبح فاهتديت به ؛ فكأنما دعانى بنباحه . وأنشد أبو على أيضا :

ومُستنبح بات الصَّدَى يستَتيهُهُ فَتاهَ وَجوْزُ الليل مضطرب الكسر
رَفَعتُ له ناراً تَقُوباً زنادها تُليحُ إلى السَّارىْ هلمّ إلى قِدْرِى
فلمّا أتى والبؤس رادِف رَحْله تلقيتُه منى بوَجْه امرىء بَشْرِ
فقلت له أهلٌ بأهلٍ فلم يَجُرْ بك الليلُ إلاّ للجميل من الأمر
وكادت تطير الشَّوْلُ عِرْفَانَ صَوْتِه ولم تُمسِ إلا وهى خائفة العَقْرِ

انتهى

وقد اتفق أكثر علماء الأدب ، كابن رشيق وأضرابه ، على أن أهجى بيت قالته العرب ، قول الأخطل فى بنى يربوع قوم جرير :

قوم إذا استَنبَح الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا : لأمِّهمُ بولى على النّار

وقال آخر يوصى بالكلاب ، وأنشدها الجرجانى فى كنايَاته ، وقال ابن المرزبان : إنهما لأعرابى قالها لأكبر ولده فى كلبه :

أوصيك خيراً به فإن له خلائقاً لا أزال أحمدُها
يدل ضيفى علىّ فى غسق الليـــل إذا النار نام مُوقدها

وفى معنى استَنْتج أيضا : كلب الرجلُ يكلِبُ من باب ضرب ، واستكلب ، أنشد ابن سيده على الأوّل :

وداعٍ دعا بعد ما أقفرت عليه البلاد ولم يكلُب

وأنشد صاحب اللسان على الثانى :

ونبح الكلاب لمُستَكلِب

انتهى .

قلت: وكما يكون الكلب سببا لإيصال الخير وتشييد الذكر فقد يكون أيضاً سبباً للشرّ ، كما جنت على أهلها بُراقِشْ ، وهى كلبة كانت لقوم من

العرب ، فأغير عليهم ، فهربوا وهى معهم ، فاستدلّ العدو عليهم بنباحها ، فهجموا عليهم واصطلموهم ، فقالوا (على أهلها تَجْنِى بَرَاقِشُ) هكذا رواه الميدانى فى مجمع الأمثال . ورواه ابن سيده فى المخصص ، والجاحظ فى كتاب الحيوان : (على أهلها دلّت براقش) . على أن نباح الكلب على الضيف وإن جعلوه من دواعى الكرم، لما سبق ذكره؛ فقد رأيناهم يعدّونه فى نفسه من خصاله المذمومة ، لأنه لا ينبح على القادم إلاّ كراهة منه فى الغريب . ومن أحسن ما يروى فى هذا الصدد نادرة أبى عبد الله محمد بن مزروق عالم المغرب مع أهل تونس لمّا ورد عليهم وسألوه قراءة درس فى التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعيّنوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارىء غير ذلك ، وهو قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب . . الآية ، وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ثمّ تفجّر بينابيع العلم ، إلى أن أجرى ذكر ما فى الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات . حتى عدّ من ذلك جملة؛ ثم قال فى آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أنّ فيه خصلة ذميمة ، وهى انكاره للضيف . انتهى .

وعندى أنّ ذمهم له بإنكاره الضيف لم يقصدوا به إلا معنى من المعانى الشعرية ، وإلاّ فأىّ فائدة من الكلب أعظم من حراسته أهله ،ودفعه عنهم؟ !

(٨) الشَّمَّمْ — بفتح الثائين المثلثتين وسكون الميم الأولى: كلب الصيد . والكالب ليس اسما للكلب ، بل هو والكليب كأمير :جماعة الكلاب، فى اللسان : الكليب كالعبيد ، جمعٌ عزيز . وأنشد فى وصف مغازة :

كأنّ تجاوب أصدائها مُكاءُ المكلّب يَدْعو الكليبا

والمكلّب بكسر اللام المشدّدة: معلّم كلاب الصيد . ومُكاؤُه :صفيره . وقال شارح

القاموس نقلاً عن شيخه : إنهم اختلفوا فى الكليب هل هو جمع أو اسم جمع، وصححوا أنه إذا ذكّر كان اسم جمع كالحجيج، وإذا أنث كان جمعاً كالعبيد. انتهى

وعبلع — كدرهم ، أى بكسر الهاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام وبعدها عين مهملة : الكلب السلوقى ، واسم كلب بعينه ومُنذر كأنه من انذار أهله بالطارق. والعوج لم يذكروه، وذكره الجاحظ على أنه الكلب فى بيت أنشده فى كتاب الحيوان . والهِيجْرع — بكسر الهاء وسكون الجيم وفتح الراء وبعدها عين مهملة : الكلب السَّلوقى الخفيف .

(٩) كَسْيب مصغّراً : اسم كلب ، كما فى المخصص ، وفى اللسان : كسيب من اسماء الكلاب ، ومراده من الأعلام التى تسمى بها الكلاب ؛ كما وضحه الناظمُ فى البيت. وقد خصوه بذكور الكلاب كما خصوا كَسَاب وكَسْبَة بإناثها . وسيأتى قول الناظم فيهما ، إنما كانوا يسمون كلابهم بذلك تفاؤلا بالكسب والاكتساب .

(١٠) القَلَطِى بفتح القاف واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مشدّدة والقُلاَط — كغراب ، والقِيلِيط — بكسر القاف واللام ، كل ذلك القصير المجتمع من الناس والسنانير والكلاب ؛ وقد جاء به أبو الشمقمق فى قوله من أبيات :

جِئْتُهُ زائراً فأَدْنَى مكانى ... وتَلَقَّى بِمَرْحَب وتَحِيَّهْ

لا كَمِثْل الأصمّ حارِثة اللؤ ... م شبيه الكُلَيبة القليطية

وفى حياة الحيوان أن القلَطى نوع من الكلاب السُلوقِيَّة صغير الجِرْم قصير القوائم ، ويقال له الصِّينى .

والسلوقى — بفتح السين المهملة ، نسبة إلى سلوق ، وهى أرض أو قرية باليمن ، وذهب الجوهرى إلى أنها مدينة بالشام ، قال القطامى :

معهم ضوار من سلوق كأنها حصن تجول تجرر الارسانا

وفى معجم ياقوت نقلا عن ابن الحائك ، وهو يذكر اليمن : سلوق كانت مدينة عظيمة بأرض الجديد ، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة . إلى أن قال : وإليها كانت العربُ تنسب الدروع السلوقية والكلاب السلوقية . انتهى . وقيل : سلوق بلد بطرف أمينية يعرف ببلد اللاق ، وتنسب إليه الكلاب . وقيل : بل هى منسوبة إلى سلقية بفتحتين فسكون وباء مفتوحة مخففة : بلد بالروم ، فلما نسبوا إليه قالوا : سلوقى . فغيروا النسب وجاء فى اللسان : سلوق أرض باليمن ، وفى التهذيب : قرية باليمن ، وهى بالرومية : سلقية . انتهى فسلقية على هذا فى اللغة الرومية هى سلوق التى باليمن والله أعلم أما علماء الحيوان من الأفرنج اليوم ، فيقسمون السلوقى إلى عدة أنواع ، لكل صقع نوع ، واسمه فى لغة الفرنسيس لفريه : (Levrer) ويذهبون إلى أن أنواعه تفرعت من جنس أصلى كان فى سهول غربى آسيا ، ولهم فى تعديدها كلام كثير ليس هذا موضعه . ورأيت فى المعجم الكبير للاروس أن السلوقى (Sloughl) الحقيقى يوجد فى الأقاليم الهندية الغربية وهو أصهب اللون .

والنصيبى — بفتح النون وكسر الصاد المهملة ، نسبة إلى نصيبين ، ويقال فى النسبة إليها : نَصِيبى أيضاً . وهى ثلاثة مواضع : مدينة من بلاد الجزيرة وقرية من قرى حلب ، ومدينة بشاطىء الفرات ، تعرف بنصيبين الروم . ولم أر أحد انص على اشتهار واحدة منها بنوع من الكلاب ينسب إليها ، فإما أن يكون الناظم رآه فى كتاب لم نطلع عليه ، أو يكون أراد الصّينى ، فحرّفه الناسخ ، وعلى هذا يكون الشطر وكذلك الصِّينى بذاك أشبه أو نحو ذلك . وقد مرّ بك عن الدّميرى فى « حياة الحيوان » أن القلطى يقال له : الصينى .

فقول الناظم (بذاك أشبه) بعد ذكره القلطىّ ، يرجح أنه أراد الصّينى . على أنّ كثيراً من أئمة اللغة لا يذكرون الصينى إلا فى معرض ردّه وتغليط قائله فقالوا : كلب زئنى : قصير ، ولا تقل صينى . ورأيت الجاحظ جمع بينهما فى كتاب الحيوان فقال:(الكلب الزئنى الصينى يسرج على رأسه ساعات كثيرة من الليل فلا يتحرك . وقد كان فى بنى ضبة كلب زئنى صينى يسرج على رأسه فلا ينبض فيه نابض ويدعونه باسمه ، ويرمى إليه ببضعة اللحم ، والمسرجة على رأسه فلا يميل ولا يتحرك ، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه ، فإذا أزيل عن رأسه وثب على اللحم فأكله . دُرَّبَ مَدَرِب وثقف فثقف ، وأدب فقبل) وعلى كل حال فالصينى ذكروه وإن خطأ بعضهم قائله ، بخلاف النصيبى ، فأنا لم نر أحدا ذكره فيما نعلم .

١١ — المستطير — بالسين والطاء والراء المهملة جميعها : الكلب الهائج أى الطالب السفاد . وأراد الناظم بالعباب : كتاب العباب الزاخر فى اللغة وهو كتاب كبير يقع فى عشر بن مجلدا للامام حسن بن محمد الصاغانى المتوفى سنة ١٦٥٠ ، بلغ فيه إلى الميم ، ووقف فى مادة بكم ، ومات قبل إتمـــامه ، ولهذا قيل :

إنّ الصَّغَـــــانىّ الذى حازَ العُلومَ والحِكَمْ
كانَ قُصَـــارَى أمره أن انتهى إلى بَكَمْ

(١٢) الدرص ـ بتثليث الدال المهملة وسكون الراء وبعدهما صاد مهملة ولد الكلب ، وكذلك الجرو مثلث الأول .

(١٣) السمع ـ بكسر السين المهملة وسكون الميم وبعدهما عين مهملة أورد الناظم على أنه من أسمـــاء ولد الكلب ، نقلا عن الصولى والذى فى مادة (س م ع) من كتب اللغة أنه سبع مركب ،

وهو ولد الذئب من الضَّبُع ، ومن أمثالهم : (أَسْمَعُ من سِمْع) ومن السِّمْع : الأَزَلّ . قال :

تراه حديدَ الطَّرْفِ أبْلَجَ واضِحًا أغَرَّ طويلَ الباعِ أسْمَعَ من سِمْعِ

ثم رأيت فى مادة (خ ى ه ف ع) من اللسان أنه ولد الكلبة من الذئب نقلا عن الأزهرى ، ورأيت أيضاً فى جزء للناظم سماه « التهذيب فى أسماء الذيب » أن السِّمع بين الذئب والكلب . وأبو خالد : من كُنَى الكلب ، ذكره الناظم فى المزهر ، وقال أبو السعادات المبارك ابن الأثير فى المرصّع : أبو خالد هو الكلب ، من قولك : أخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه ، وأخلد بالمكان إذا أقام به . وهو كنية الثعلب أيضاً . انتهى .

قلت : وللكلب كنى أخرى سنَذْكرها فيما استدركناه على الناظم بعد تمام الشرح .

(١٤ و ١٥) فى نسختين من الأصل بإسقاط لفظة (أيضاً) من عجز البيت ، فيصير الشطر : (وكلبة قيل لها كَسَاب) ولا بد فى هذه الحالة من كسر باء كسابِ للوزن ، وهو مع هذا لا يلتئم مع الصدر ؛ لأن العروض دخلتها إحدى علل الزيادة وهى التذييل ، ودخوله فى الرجز مغتفر للمولدين . والبيت مُصَرّع ، ولا بد فى التصريع من مطابقة الضرب للعروض فى الوزن والقافية ؛ فلهذا اضْطُرِرْنا لزيادة (أيضاً) مع التنبيه عليها فى الشرح ليَلْتَئِمَ الشطران فى الوزن . ويمكن أن يقال بإسقاطها :

ونَقَلُوا الزُّهَّادَ لِلْكِلاَبِ وكَلْبَةٌ قيل لها كَسَابِ

إلا أن احتمال سقوط لفظة من قلم الناسخ سهوا أقرب من تغيير (الزاهدون) بالزّهّاد . أما وصف الكلب بالزهد ، فقد وقفت فى مجموع على رسالة فى خصال

الكلب المحمودة ، تنسب للحسن البصرى، جاء فيها ما نصه : (الخَصْلَة الرابعة، أنه إذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين) وكنت فى ريب من أمر هذه الرسالة ، حتى رأيتها فى نفح الطيب مسوقة فى ترجمة أبى عبد الله الراعى الغرْناطِي، وذكر أنه أوردها فى باب العَلَم من شرحه على الألفية، منسوبة للحسن البصرى . والله أعلم .

ومن أمثالهم فى ذلك : (أَشْكَرُ من كلب) إلا أن الأكثرين على وصفه بالحرص والشره ، ومن أمثالهم فيه (أَحْرَصُ من كلب على جيفة) ومن كلب على عَرْق ، والعَرْق بالفتح : العظم عليه اللحم ، أو الذى أكل لحمه . وقالوا أيضاً (أَلأَمُ من كلب على عرق) و (أَنْهَمُ من كلب) . وكَسَابِ كقَطَام مبنيا على الكسر : الذئب ، كما فى القاموس ، وفى الصحاح والمخصص أنه اسم كلبة ، وهو الذى أراده الناظم . وقد مر بك بيت لَبيد الذي ذكر فيه كلبة تسمى بهذا الاسم . ومثله كَسْبَةُ بالفتح ، قال الأعشى :

ولَزَّ كَسْبَةَ أُخْرى فَرْعُها فَهِقُ

(١٦) العَوْلقُ بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح اللام وبعدها قاف: الكلبة الحريصة. والمعاوية الكلبة المستَحْرِمَةُ تعوى إلى الكلاب. ومن طريف ما يحكى أن جارية بْن قُدَامَة دخل على أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، فقال له : ما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك جارية ! فقال : وما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . ويروى أن شريك بن الأعور دخل عليه وكان دميما ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور ، فكيف سُدْتَ قومك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر ،

وإنك لابن حرب والسّلم خير من الحرب ، وإنك لابن أُمية ، وما أُمَيّة إلا أَمَة صُغِّرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ !

ويشبه هذا ما رواه أبو هلال فى الصناعتين : أن رجلا من قريش قال لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان بن الأهتم ، فقال الرجل : إن اسمك لكذب ، ما خلد أحد . وإن أباك لصفوان، وهو حجر . وإن جدك لأهتم ، والصحيح خير من الأهتم . قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار . قال : فمثلك يشتم تميما فى عزّها وحَسَبِها ، وقد هشمتك هاشم ، وأَمَتْك أُمَيّةُ ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصىّ فجعلتك عبد دارها ، وموضع شفارها ؛ تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا ، وتغلقها إذا خرجوا ! انتهى .

واللَّعْوَة بفتح اللام وسكون العين المهملة ، واللَّعاة بفتحتين : الكلبة من غير تخصيص بشَرَهٍ وحرص ، وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : يقال أحرص من لَعْوة ، وهى الكلبة . وفى اللسان ومجمع الأمثال للميدانى: (أجوع من لَعْوة) .

(١٧) العُسْبُورَةُ بضم العين وسكون السين المهملتين وضم الباء الموحدة وبعدها واو ساكنة وراء وهاء : ولد الكلب من الذئبة ، ويقال له : العسبور أيضاً ، ولهذا قال الناظم (وإن تزل ها لا تلم) أى إن نطقت به بدون هاء لا يلومك إنسان ، لأنه مسموع .

(١٨) الخَيْهَفَعَى بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الهاء والفاء والعين المهملة مقصوراً : ولد الكلب من الذئبة . وقد سمع أيضاً بالمد . وفى اللسان : حكى الأزهرى عن أبى تراب قال : سمعت أعرابياً من بنى تميم يكنى أبا الخَيْهَفَعَى ، وسألته عن تفسير كنيته ، فقال : يقال إذا وقع الذئب

على الكلبة جاءت بالسِّمْع ، وإذا وقع الكلب على الذئبة جاءت بالخيهقى . قال : وليس هذا على أبنية أسمائهم مع اجتماع ثلاثة أحرف من حروف الحلق وقال عن هذا الحرف وعما قبله فى باب رباعى العين فى كتابه : وهذه حروف لا أعرفها ، ولم أجد لها أصلا فى كتب الثقات الذين أخذوا عن العرب العاربة ما أودعوا كتبهم ، ولم أذكرها وأنا أحقها ، ولكنى ذكرتها استظهاراً لها وتعجباً منها ، ولا أدرى ما صحتها . انتهى .

(١٩) الدَّيْسَم بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح السين المهملة وبعدها ميم : ولد الثعلب من الكلبة ، أو ولد الذئب منها . هكذا فى القاموس واللسان ، وقال الجوهرى فى الصحاح الدَّيْسَم : ولد الذِّئب ، قال : وقلت لأبى الغَوث : يقال إنه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلا ولد الذِّئب . انتهى . وقال الجاحظ : إنه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون وغبرته ممتزجة بسواد .

(٢٠) الهَرَاكِلَة بفتح الها والراء وكسر الكاف وفتح اللام . كلاب الماء وقول ابن أحمر الباهلى يصف دُرَّة :

رَأَى مِنْ دُونِهَا الْغَوَّاصُ هَوْلاً هَرَاكِلَةً وحِيتَانًا وَنُونا

فسره الأزهرى فى التهذيب بكلاب الماء . والصاغانى فى العُباب : هى جمال الماء ، وقيل : هى ضخام السمك .

(٢١) القُنْدُس كقُنْفُذ ، أى بضم القاف وسكون النون وضم الدال المهملة وبعدها سين مهملة : كلب الماء . أهمله القاموس واللسان والمخصص ، وذكره شارح القاموس والدميرى فى حياة الحيوان ، ونسبا تفسيره بذلك لابن دَحْيَة . كما ذكره الناظم ، وعبارته تفيد أنه أهمل ونسى .

(٢٢) القُضَاعَة بضم القـــاف وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة : اسم كلبة الماء .

(٢٣) شرع الناظم فى هذا البيت وما بعده يعدد أسماء ابن آوى ، تبعاً لمن عده نوعا من الـكلاب ، فذكر من أسمائه : الدَّأْل بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة وبعدها لام . والدئل بضم فـكسر ، وقد نصوا على أن لا نظير لها إلا رُئِم والدُّؤُل بضمتين . والدَّأْلان محركةً ، ويقال فيه الذَّأْلان بفتح الذال المعجمة ، والذؤلان بضمها ، إلا أن الهمزة فيها ساكنة . والعِلَّوْض بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة ، وسكون الواو وبعدها ضاد معجمة . والنَّوْفَل بفتح النون وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها لام . واللَّعْوَض بفتح اللام وسكون العين المهملة وفتح الواو ، وبعدها ضاد معجمة . والشُّرْحوُب بضم السين المهملة وسكون الراء وضم الحاء المهملة وبعدها واو ساكنة وباء موحدة . والوَعَّ بفتح الواو وبعدها عين مهملة مشددة . والعِلَّوْش بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة وبعدهما واو ساكنة وشين معجمة . والوَعْوَع بفتح الواوين وإسكان العين الأولى المهملة . والشَّغْبَرَ بفتح الشين وإسكان الغين المعجمتين ، وفتح الباء الموحدة وبعدها راء ؛ وبالزاى المعجمة تصحيف . والوأْوَاء بفتح الواوين وسكون الهمزة الأولى . وكلها من أسماء ابن آوى .

هذا ما أردنا بيانه ، ويتبين منه ثلاثة أمور :

الأول : أن الناظم ـ رحمه الله ـ مع استيفائه لـكثير من أسماء الـكلب قد أدرج فيها بعض صفات يشترك فيها الـكلب مع غيره ، ولم نجد مع كثرة البحث نصا على أنها غلبت عليه ، حتى يمكن عدها فى أسمائه ؛ كذكره الزاهد والمنذر ، وداعى الـكرم ، ومشيد الذكر ونحوها . فالظـــاهر أنه تسامح فى إيرادها ، أو يكون وقف فيها على ما لم نقف عليه . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثانى : إيراده أربعة أعلام مشهورة للكلاب نص منها على ثلاثة ، وهى : كُسَيْبٌ وكَسَابٍ وكَسْبَةُ ، وسكت عن واحد وهو سُحَامٍ ، فدل بسكوته على عَدّه من أسماء الأجناس ، وكلاهما لا يبرئه من مَعَرَّة المَعَرِّى ؛ لأن جعل سُحام اسما وَهَمٌ ظاهر . وإيراد ثلاثة أعلام خارج عن مقصود أبى العلاء. إلا أن يكون أوردها زيادة منه فى الفائدة . وهو أيضاً تقصير ، لاقتصاره عليها، مع وجود ما هو أشهر منها .

الأمر الثالث : ما فاته من أسمائه ، وهو ما نريد استدراكه هنا ، وبعضه مر أثناء الشرح . فمنها :

« الدِّرْوَاسُ » بكسر أوله ، وهو الغليظ العنق من الكلاب ، وقيل الكبير الرأس منها ، وقول بعضهم :

بِتْنَا وبَاتَ سَقِيطُ الطلّ يَضْرِبُنَا عِنْدَ النَّدُولِ قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسِ

قيل : إن أولى ما يفسّر به : الكلب ، لقوله : قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسٍ ؛ لأن النبح إنما هو فى الأصل للكلاب . وقوله النَّدُول ، يجوز أنه عنى به امرأة أو رجلا من النَّدْل وهو شبيه الوسخ ، أو عَنَى به كَلْبَةً . ورواه الجاحظ فى كتاب الحيوان : (بين البيوت) . ودِرْوَاسٌ أيضاً : اسم كلب بعينه . والأظهر أن البيت قيل فيه ، أو فى كلب آخر يسمى بهذا الاسم .

و « الأَرْشَم » قالوا سمى بذلك لشممة الطعام وحرصه . وقد يطلق أيضاً على الذئب .

و « العِفْرَاسُ » بالكسر ، وهو الشديد العنق الغليظةُ من الكلاب ، ومثله « العَفَرْنَسُ » . و « القُلَاط » بالضم و « القِيلِيطُ » بالكسر كلاهما القصير المجتمع ، ويقال فيهما : القَلَطِىّ ، وقد ذكره الناظم .

والأَغْضَفُ » ومثله « الغاضِفُ » وهو المسترخِى الأُذُن من الكلاب،

وفرق بينهما ابن الأعرابى فقال : الغاضف من الكلاب المتكسر أعلى أُذُنه إلى مُقَدَّمِه ، والأَغْضَف إلى خلفه ، كذا فى اللسان . ثم قال : والغُضْفُ : كلاب الصيد من ذلك صفة غلبة . انتهى : وقول لبيد :

حَتَّى إذَا يَئِسَ الرُّمَاةُ وأَرْسَلوا غُضْفاً دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا

أراد كلاب الصيد .

و « ابن بُقَيْع » بالتصغير ذكره ابن الأثير فى المرصَّع . و « ابن وَازِع وابن زَارِع وابن ذَارِع وابن ذِرَاع وابن بوْزَع وابن عَوْلَق » .

فهذه خمسة عشر اسماً للكلب فاتت الناظم .

وفاته من أسماء أولاده :

« الضِّرْوُ » بالكسر ، وهو الضارى من أولاد الكلاب . ومثله « الضَّرِىّ » و « الأسبُورُ » وهو ولد الكلب من الضَّبُع ، كما فى حياة الحيوان ومجمع الأمثال ، عند تفسير قولهم : « أسمَعَ من سِمْع » .

وفاته من أسماء ابن آوى :

« البُرْعُل » بالضم ، وهو ولد الوَبْر من ابن آوى .

وفاته من أسماء الكلبة :

« اللَّعَّاة » بفتحتين ، وهى الكلبة الحريصة ، أو الكلبة مطلقاً من غير تخصيص .

« والبِوْزَعُ » وهى الكلبة الحريصة ، كما فى المرصَّع .

وفاته من كُنَى الكلب : « أبو حَاتِم » و . « أبو ذِرَاع » . و « أبو قيس » و « أبو عامر » لأنه يعمر بيت صاحبه بحراسته إياه .

و « أبو عطاف » بكسر العين والتخفيف ، لأنه يعطف على أصحابه ، قال العجّاج يصف صائداً :

ذَا أُكْلُبٍ كَالأَسْهُمِ العِطَافِ يُشْلِي عِطَافًا وأَبَا عِطَافِ

كذا فى المرصع . ورواية الديوان : ذَا أُكْلُب نَوَاهِزٍ خِفَافِ .

ومن أمثالهم فى هذا المعنى : « آلَف مِن كَلْب » .

ولهم فى وفاء الكلب وعطفه على صاحبه أقوال ونوادر كثيرة ، وربما فضلوه فى ذلك على الصاحب والخليل . وقد جمع منها ابن المرزبان جملة صالحة فى كتاب سماه : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » وقفت عليه ونقلت منه فى هذه الرسالة . ومن وقف على ما كتبه الجاحظ عن الكلب فى كتاب « الحيوان » رأى عجباً عجاباً . ويذكرون من نوادر وفائه أن الربيع بن بدر كان له كلب قد رباه ، فلما مات جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات . ولما مات عامر بن غبرة لزمت كلابه قبره حتى ماتت عنده ، وتفرق عنه الأهل والأقارب . وقال الشعبى : خير خصلة فى الكلب أنه لا ينافق فى محبته . وأنشد القالى فى أماليه لأعرابى :

كلابُ الناس إنْ فَكَّرتَ فيهم أضرُّ عليك من كَلْب الكلاب
لأن الكلب لا يؤذى صديقاً وأن صديق هذا فى عَذَاب
ويأتى حين يأتى فى ثياب وقد حُزمت على رجل مُصَاب
فأخزى الله أثواباً عليه وأخزى الله ما تحت الثياب

ومن أغرب ما رأيته ما حكاه الجرجانى فى كتاباته عن محمد بن حرب قال : رأيت العَتَّابىّ ينادم كلباً يشرب كأساً ويولغه كأساً . فكلمته فى ذلك ، فقال : إنه يكف عنى أذاه وأذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مبيتى ومقيلى ،

فهو من بين الحيوان خليلي . قال ابن حرب : فتمنيت أن أكون كلباً لأحوز هذا النعت . انتهى . وقد ذكر ابن المرزبان هذه القصة لإبراهيم الموصلي مع الفضل ابن يحيى ببعض اختلاف . والله أعلم .

ولم يذكر الناظم من كُنى الأنثى شيئاً وهى :

« أم عولق » و « أم ذِراع » و « أم الهَمَّرِش » بتشديد الميم المفتوحة كما فى المرصع : وفى القاموس واللسان : الهَمَّرِش اسم كلبة . و « أم يَعفور » قال فى المرصع : هى الكلبة ، وأنشد :

يا أم يَعفُورٍ سَقَاكِ العَهْدُ لا زَال من صَيْدٍ عَلَيْكِ لِبْدُ

يقول : لا زال عليك مما تصيدين لِبْدٌ من وَبَر الأرانب وغيرها . واليَعفور فى الأصل : ولد الظبية وولد البقرة الوحشية . و « أم العاويات » والعاويات أولادها .

وكذلك لم يذكر من كُنَى ابن آوى شيئاً ، وهى :

« أبو ذؤيب » . و « أبو كَعْبٍ » . و « أبو معاوية » . و « أبو أيوب » و « أبو وائل » . والله أعلم .

أما أعلام الكلاب المشهورة التى عنوا بذكرها فكثيرة منها :

سُحَيْمٌ ، وَطِحَالٌ ، وأَكْدَرُ ، وَوَاشِقٌ ، وزُهمانُ ، ومَيْلَعُ ، وبَرَاقِشُ ، وجَدْلاَء : كلبات . والمُخْتَلِسُ ، وغَلاَبٌ ، والقَنِيص ، وسَلْهَبٌ ، وسِرْحَانُ ، والمِغْنَاطِيسُ ، هى خمسة أكلُبٍ كانت لرجل اسمه ذريح ، وآخر اسمه أبودَجَانَة ، يصيدان بها الظباء .

وقَرْحان : اسم كلب له قصة تحاميت عن ذكرها ، حَبَس سيدُنا عثمان بن عفان بسببها ضَائِى بن الحارث البُرْجُمِىّ .

وضُمْران بالضم وبالفتح ، وروى بهما فى قول النابغة :

فهاب ضُمرانُ منه حِينَ يُوزِعُهُ طَعْنُ المعارِكِ عِنْدَ المُجْحَرِ النَّجِدِ

هواسم كلب .

وضَبَّار بتشديد الباء الموَحَّدَة ، الذى قال فيه الحارث بن الخزرج الخفاجىّ :

سفرتْ فقلت لها هَج فَتبَرْقَعَتْ فَذَكَرْتُ حينَ تَبَرْقَعَتْ ضَبَّارَا
وتَزَيَّنَتْ لتروعَنِى بجَمَالِهـا فكأنَّمَا كُسِىَ العِمَارُ خِمَارَا
فخرجْتُ أعْثُر فى قَوَادِمِ جُبَّتِى لولا الحياء أطَرْتُهَا إحْضَارَا

هو اسم كلب له ، وقوله : هَج زجر للكلب . وكان لسليمان بن داود الهاشمى كلب صيد يسمى زُنْبُوراً ، وفيه يقول أبو نواس :

إذا الشياطين رَأَتْ زُنْبُورَا قد قُلِّدَ الحَدْقَةَ والسمُورَا

من أرجوزة يقول فى آخرها :

فَأَمْتَعَ اللهُ به الأَمِيرَا رَبِّى وَلاَ زَالَ بِهِ مَسْرُورا

ومن طرائفهم ما رواه الراغب فى محاضراته لأبى مِحْجَن ، فى رجل اسمه : وَثَّاب واسم كلبه : عمرو ؛ ورواها فى موضع آخر من هذا الكتاب لابن أبى عتيق ، باختلاف فى الرواية .

وَلَو هيَّـا لَهُ الله من التوفيق أَسْبَابا
لَسَمَّى نَفْسَهُ عَمْرَا وَسَمَّى الكَلْبَ وَثَّابا

قلت : تذكرت بهذين البيتين قصة ظالم لما جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وكان معه كلب له اسمه : راشد ، فسأله عليه السلام عن اسمه واسم كلبه ، فلما أخبره ضحك عليه السلام ، وقال : اسمك راشد واسم

كلبك ظالم . وفى رواية أنه كان يسمى غاوى بن ظالم ، فسماه عليه السلام راشد بن عبد الله . وسبب إسلامه أنه كان سادنا لصنم اسمه سواع ، فرأى يوما ثعلباً يعدو عليه ببوله ، فكسره ، وقال فيه :

أَرَتْ بِبول الثَّعْلُبَانُ بِرأْسِهِ لقد ذَلَّ من بالَتْ عَلَيه الثَّعالِبُ

وفى القصة ، رواية هذا البيت ونسبته لراشد، اختلاف ليس هذا محل ذكره.

وكان لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها كلب اسمه مِسْمار . قال صاحب القاموس : إنه مرض فقالت : وارَحْمَتَا لمِسْمار . وفى كتاب « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » لابن المَرْزُبَان ، أنها رضى الله عنها كانت إذا حجَّت خرجت به معها ؛ فليس يطمع أحد فى القرب من رَحلها مع مسمار ، فإذا رجعت جعلته فى بنى جَديلَةَ ، وأَنْفَقَت عليه ، فلما مات قيل لها : مات مسمار ، فبكت وقالت : فُجِعْتُ بمسمار .

وفى هذا القدر كفاية فقد كدنا نخرج عن المقصود . ولولا خوف الإطالة لذكرت أيضاً ماورد من أمثالهم فى الكلاب، وهى كثيرة تربو على خمسة وخمسين مثلا : على أن ماذكرناه وإن طال فلا يخلو من فائدة ، وفى التنقُّل جِمَام للأنفس .

الرسالة الأغريضية

رسالة أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعرّى وتسمى الأغريضية [1] كتبها جواباً عن الرسالة التى كتبها الوزير أبو القاسم هبة الله المغربى. السلام عليك أيتها الحكمة المغربية ، والألفاظ العربية ، أى هوا رقاك ، وأى غيث سقاك ، برقه كالأحريض ، وودقة مثل الأغريض ، حللت الربوة . وجللت عن الهبوة ، أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

(زكالك صالح وخلاك ذم — وصبحك الأيامن والسعود) .

لأنا آسف على قربك من الغراب الحجازى على حسن الذى لما أقفر وركب السفر ، فقدم جبال الروم فى نوّ ، أنزل البرس من الجوّ فالتفت إلى عطفه وقد شمط فحزن وأسى ، وترك النعيب أونسى . وهبط الأرض فمشى فى قيد ، وتمثل ببيت دريد :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

ثم أراد الأياب ، فى ذلك الجلباب ، فكره ، الشمات ، فكمد حتى مات ورب ولى أغرق فى الأكرام ، فوقع فى الإبرام ، إبرام السام لا ابرام السلام ، فحرس الله تعالى سيدنا حتى تدغم الطاء فى الهاء فتلك حراسة بغير انتهاء وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهاو وذى تصعيد ، وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس ، وجعل الله تعالى رتبته التى كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل فى أنها لا تنخفض ابدا ، فقد جعلنى أن

---

(١) عثرت اللجنة على هذه الرسالة الأغريضية وبخط النسخ وقد أشار إليها المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا فاثبتناها فى هذا المؤلف إتماما وبيانا لعله الفائدة المرجوة والغاية المنشودة.

حضرت عرف شأنى ، وإن غبت لم يجهل مكانى ، كيا فى الندا ، والمحذوف من الإبتداء ، إذا قلت زيد أقبل ، والأبل الأبل ، بعد ما كنت كها الوقف إن القيت فبواجب ، وإن ذكرت ففير لازب ، إلى وإن غدوت فى زمان كثير الدكهاء العدد لزمت المذكر ، فأتت بالمنكر ، مع إلف يرانى فى الأصل ، كألف الوصل ، يذكرنى لغير الثنا ، ويطرحنى لغير الاستغنا ، وحال كالهمزة تبدل العين ، وتجعل بين بين ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت الرصين ، فهى لا تثبت على طريقة ولا تدرك لها صورة فى الحقيقة . ونوايب ألحقت الكبير بالصغير ، كأنها ترخيم التصغير ، ردت المستحلس إلى حليس وقابوس إلى قبيس ، لأمدن صوتى بتلك الآلاء مد الكوفى صوته فى هؤلاء ، وأخفف عن حضرة سيدنا الرئيس الحبر تخفيف المدنى ماقدر عليه من النبر ، أن كاتبت فلا ملتمس جواب ، وأن أسهبت فى الشكر فلا طالب ثواب حسبى مالدى من أياديه ، وما غمرنى من فضل السيد الأكبر ابيه . أدام الله تعالى لهما القدرة ما دام الضرب الأول من الطويل صحيحاً ، المنسرح خفيفا سريحاً ، وقبض الله تعالى يمين عدوهما عن كل معن ، قبض العروض من أول وزن ، وجمع له للهانة إلى التفنيد ، كما جمع فى ثانى المديد ، وقلم قلم الفسيط ، وخبل كسباعى البسيط ، وعصب الله تعالى الشر بهامة شانيهما وهو مخزو ، عصب الوافر الثالث وهو مجزو ، بل أضمرته الأرض إضمار ثالث الكامل ، وعداه أمل الآمل . وسلم سيدانا أعز الله تعالى نصرهما ومن أحباه وقرباه سلامة متوسط المجموعات ، فإنه آمن من المروعات ، فقد افتنفت فى نعمهما الرائعة ، كافتنان الدايرة الرابعة . وذلك أنها أم ستة الموجودين ، وثلاثة مفقودين ، وأنا أعد نفسى مراسلة حضرة سيدنا الجليلة عدة ثريا الليل ، وثريا سهيل ، هذه القمر ، وتلك عمر ، وأعظمه فى كل وقت ، أعظاماً فى مقة وبعض الإعظام فى مقت ، فقد نصب

للاداب قبة صار الشام فيها كشامة المعيب، والعراق كعراق الشعيب أحسبت ظلالها من البردين ، وأغفت العالم عن الهندين ، هند الطيب ، وهند النسيب ربة الخمار ، وأرباب قمار ، أخدان التجر وخدينة الهجر ، ما حاملة طوق من الليل ، وبرد من المرتبع مكفوف الذيل ، أوفت الآشاء ، فقالت للكثيب ما شاء ، تسمعه غير مفهوم ، لا بالرمل ولا بالمزموم ، كأن سجيعها قريض ، ومراسلها الغريض ، فقد ماد لشجوها العود ، وفقيدها لا يعود ، تندب هديلا فات ، وأتيح له بعض الآفات ، بأشوق فى هديلها من عيده إلى مناسمة أبنائه ، ولا أوجد على إلفها منه على زيارة فتائه ، وليس الأشواق ، لذوات الأطواق ، ولا عند الساجعة ، عبرة متراجعة ، إنما رأت الشرطين ، قبل البطين ، والرشا ، بعد العشا فحكت صوت الماء فى الخرير ، وأتت براد دايمة التكرير ، فقال جاهل فقدت حميماً ، وثكلت ولداً قديما ، وهيهات يا باكية أصبحت ، فصدحت ، وأمسيت فتناسيت ،لاهمام لاهمام ، مارأيت أعجب من هاتف الحمام ، سلم فناح ، وصمت وهو مكسور الجناح ، إنما الشوق لمن يذكر فى كل حين ، ولا يذهله مضى السنين ، وسيدنا ـ أطال الله تعالى بقاءه القائل النظم فى الذكاء مثل الزهر ، وفى النقا مثل الجوهر ، وتحسب بادرته التاج ارتفع عن الحجاج وغائرة الحجل فى الرجل ، يجمع بين اللفظ القليل والمعنى الجليل ، جمع الأفعوان فى لعابه بين القلة ، وفقد البلة خشن فحسن ولان ، فماهان ، لين الشكير ، يدل على عتق الحضير ، وجرس الدينار ، دليل على كرم النجار ، فصنوف الأسعار بعده كألف السلام ، يلفظ بها فى الكلام ، ولا تثبت لها هيئة بعد اللام ، خلص من سك النقد خلوص الذهب ، من اللهب ، واللجين من يد القين، كأنه لآل، فى عنق حوال وسور لط فى عنق قط، ما خانته قوة الخاطر الأمين ، ولاعيب بسناد ولاتضمين ، وأين النثرة ، من الثرة والعرقد من الفرقد ، فالساعى فى أثره ثالث عصى بصير ،

لا ثالث عصا قصير ، وأنا ثابت على هذه الطوية ثبات حركة البناء ، مقيم تلك الشهادة بغير استثناء ، غنى عن الأيمان فلا عدم : مقيم على ما قلت فلا حنث ولا ندم ، وإنما تخبؤ الدرة ، بالحسناء الحرة ، ويجاد باليمين ، فى العلق الثمين ، ما أنفسه خاطراً امترى الفضة فى القضة ، والرصاه من مثل الحصاه ، وربما نزعت الأشباه ، ولم يشبه المرء أباه ، ولا غرو لذلك الخضرة أم اللهيب ، والحمرة بنت الغريب ، وكذلك سيدنا ولد من سحر المتقدمين حكمة للحنفاء المتدينين ، كم له من قافية تبنى السود ، وتثنى الحسود ، كالميت من شرب العاتقة السكميت ونشوره قريب ، وحسابه تثريب أين مشبه الناقة بالفدن ، والصحصح بردا الردن ، وجب الرحيل ، عن الربع المحيل ، نشا بعدهم واصف ، عود زُواله كالمناصف ، إذا سمع الخافض صفته للسهب الفسيح ، والرهب الطليح ، ود ان حشيته بين الأحياء وخلوقه عصيم الهناء وحكم بالقود فى الرقود ، وصاغ برى ذوات الأرسان ، من برى البيض الحسان ، شنفاً لدر النحور ؛ وعيون الحور ، وشغفاً بدر بكى وعين مثل الركىّ . وأعراضاً عن بدور ، سكن فى الخدور ، إلى حول ، كاهله المحول ، فهن أشباه القسىّ ونعام السبى وإن أخذن فى نعت الخيل فياخيهة من شبه الأوابد بالتقييد ، وشبه الحافر بقعب الوليد ، نعتا غبط به المجين المنسوب ، والباذل اليعسوب ، إذ رزق من الخير ، ما ليس لكثير من سباع الطير وذلك أنه مع الصغر ، سمى بعض الغرر ، وقد مضى حرس ، وخفت جرس ، وللقابع أبغض طالع ، وللأرزق يجنبك عنه الفرق ، فالآن سلمت الجبهة من المعض ، وشمل بعضها بركات بعض ، فأيقن النطيح أنه لا يطيح ، والمهقوع ، نجارا كبه من الوقوع ، فلن يخرب ، قائد المحرب ، ولن يرجل ، سائس الأزجل ، والعاب ، وإن لحق السكعاب ، ناكب عن ناقلات المراكب ، وقالت خيفانة أمرئ القيس ، الدبّاءة لراعى المباءة ، والأسفية ، للقدر السكيفية نقماً على عاجل غدرها ، كقرون العروس ، وجبهتها كمخدف

التروس ، وأنّى للكندىّ ، قوافٍ كهجمة السعدىّ :

إذا اصطكت بضيق حجرتاها تلاقى العسجدية والظليم

والقسيب فى تضاعيف النسيب، والشباب ، فى ذلك التشبيب ، ليس روّية بمقلوب ، ولكنه من أدواء القلوب ، قد جمع أليل ماء الصبى ، وصليل ظلماء الظبى ، فالمصراع كوذيلة الغريبة ، حكت الزينة ، وأرت الحسناء سناها ، والسمجة ماعناها، فأما الراح فلو ذكرها لشفت من الهرم ، وانتفت من الكرْم إلى الكرَم ولم ترض دنان العقار، لباس القار ، ونسج العناكب ، على المناكب ولكن تكسى من وشي ثياباً ، ويجعل طلاؤهما زريابا ، ولقد سمعته ذكر خيمة يغبط المسك جارها من السيّام ، ويودّ سعد الأخبية أنه سعد الخيام ، ووقفت على مختصر إصلاح المنطق الذى كاد سيمات الأبواب تغنى عن سائر الكتاب ، فعجبت كل العجب من تقييد الإجمال بالأحمال ؛ بطىء الأحمال، وقلب البحر ، إلى قلت النحر ، وإجراء الفرات ، فى مثل الأخرات ، شرفاً له تصنيفاً شفى الريب ، وكفى من ابن قريب ، ودلّ على جوامع اللغة بالإيماء كما دلّ المضمر على ما طال من الأضماء ، أقول فى الأخبار ، أمرت أبا عبد الجبار ، فإذا أضمرته ، عرف منى قلت أمرته ، وأبل من المرض والتمريض ، بما أسقط من شهود القريض ، كأنهم فى تلك الحال ، عرفوا بالمحال ، عند قاض ، عرف أمانتهم بالانتقاض ، على حق علمه بالعيان ، فاستغنى فيه عن كل بيان .

وقد تأملت شواهد اصلاح المنطق فوجدتها عشرة أنواع ، فى عترة أخوة الصديق ، لما تظاهروا على غير حقيق ، وتزيد على العشرة بواحد ، كأخ ليوسف لم يكن بالشاهد ، والشعر الأول وإن كان سبب الأثرة ، وصحيفة للمأدبة ، فإنه لذوب القاله نموم الإطاله ، وإن قفانبك على حسنها ، وقدم سنها ، لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى ، فكيف بالبغى ، الأنثى قاتلها الله عجوزاً لو كانت بشرية كانت من أغوى البرية ، وقد تمادى بابى يوسف رحمه الله تعالى الاجتهاد ، فى

إقامة الأشهاد حتى أنشد رجز الضب ، وإن معداً من ذلك لجد مغضب أعلى فصاحته يستعان بالقرض ، ويستشهد بأجناس الأرض ، ما رؤبة عنده فى نفير فما قولك فى ضب ذانى الأظافير ، ومن نظر فى كتاب يعقوب وجده كالمهمل ، الا باب فَعِلَ وفَعَلَ ، فإنه مؤلف على عشرين حرفاً ستة مذلقة ، وثلاثة مطبقة وأربعة من الحروف الشديدة ، وواحد من المزيدة ، ونفثيين التاء والذال ، وآخر متعال ، والأختين العين والحاء ، والشين مضافة إلى حيز الراء ، فرحم الله أبا يوسف لو عاش لفاظ كمدا ،أو احفأظ غضباً حسدا سبق ابن السكيت ، ثم صاره السّكيت ، وسمق ثم جاء وتدا للبيت ، كان الكتاب تبراً فى تراب معدن . بين الحث وبين المتدن ، فاستخرجه سيدنا واستوشاه ، وصقله فكره ووشاه ، فغبطهما النيراث على الترقيش ، والآل النقيش ، فهو محبوب ليس بهين ، على أنه ذو وجهين ، مانم قط ولا هم ، ولا نطق ولا أرم ، قد ناب فى كلام العرب الصميم ، مناب مرآة المنجم فى عالم التنجيم ، شخصها ضئيل ملموم ، وفيها القمران والنجوم ، وأقول بعد فى اللفظ إن حكم التأليف فى ذكر الكلمة مرتين ، كالجمع فى النكاح بين أختين ، الأولى حل يرام ، والثانية بسل حرام ، كيف يكون فى الهودج لميسان ، وفى السية خميسان يا أم الفتيات حسبك من الهنود ، ويا أبا الفتيان شرعك من السعود ، عليك أنت بزينب ودعد ، وسم أيها الرجل بسوى سعد ، ما قل أثير ، والأسماء كثير ، مثل يعقوب مثل خود كثيرة الحلى ضاعفته على التراق ، وعطلت الخصر والساق، كان يوم قدوم تلك النسخة يوم ضريب ، حشر الوحش من الإنس ، وأضاف الجنس إلى غير الجنس ولم يحكم على الظباء ، بالسباء ، ولا رمى الرجال ، بالأوجال ، ولكن الأضداد تجتمع ، فتمتنع وتنصرف بالذات ، من غير أدات وأن عبده موسى لقيفى نقاباً ، فقال هلم كتابا ، يكون لك شرفاً ، وبموالاتك فى حضرة سيدنا معترفاً ، فتلوت عليه هاتين الآيتين ، (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ، وإنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى)

وأحسبه رأى نور السؤدد فقال لمخلفيه ، ما قال موسى صلى الله عليه لأهليه (إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هُدَى) فليت شعرى ما يطلب أقبس ذهب ، أم قبس لهب ، بل يتشرف بالأخلاق الباهرة ، ويتبرك بالأحساب الطاهرة .

(بَاتت حواطبُ ليلى يقتَبسن بها جزل الجُذا غير خوارٍ ولا دُعُر)

وقد آب من سفرته الأولى ، ومعه جـذوة من نار قديمة إن لمستْ فنار ابراهيم ، وإن أونست فنار الكليم ، واشترى بهارا حيّت به المرازبة كسرى ، وحل فى فكاك الأسرى ، وأدرك نوحاً مع القوم ، وبقى غضاً إلى اليوم ، وما انتجع موسى إلا الروض العميم ، ولا اتبع إلا أصدَق مغيم ، وورد عبده الزّهرىّ من حضرته المطهرة كأنه زهرة نقيع ، أو وردة ربيع ، كثيرة الوُرق ، طيبة العرق ، وليس هو فى نعمته كالريم ، فى ظلال الصريم ، والحباب ، فى السحاب المنجاب ، لأن الظلام يسفر ، والغمام ينسفر ، ولكنه مثل النون فى اللجه ، والأعفر تحت جربه ، وقد كنت عرّفت سيداً فيما ساف ، أنّ الأدب كعهود ، فى إثر عهود ، أروت النجاد ، فما ظنك بالوهود ، وفى نزلت من ذلك الغيب ببلد طسم ، كأثر الوسم ، منعه الفراع ، من الاصراع ، يابوس بنى سدوس ، العدوّ حازب ، والكلأ عازب ، ياخصب بنى عبد المدان ، ضان فى الحريث وضان فى السعدان ، فلما رأيت ذلك أتعبت الأظل ، فلم أجد إلا الحنظل ، فليس فى اللبيد إلا الهبيد ، جنيته من شجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، لبن الإبل عن المرار مرّ ، وعن الأراك طيب حر ، وهذا مثلى فى الأدب ، فأما فى النسب ، فلم تزل محمد الله تعالى وبقاء سيد ا بلغتان بلغة صبر وبلغة وفر ، أنا منهما بين اللبة للرعية واللقحة الربعية ، هذه عام ، وتلك مال وطعام ، والقليل ، سُلم إلى الجليل ، كالمصلى بريغ الضو باشباع الوضو ، والتكفير بادامة التعفير ، وقاصد بيت الله يغسل الحوب ، بطول الشحوب . وأنا فى

مكاتبة حضرة سيّدنا الجليلة ، والميل عن حضرة سيدنا الأجل والده أعز الله تعالى نصره كسباً بن يغرب ، لما ابتهل فى التقرب ، إلى خالق النور ، ومصرف الأمور ، نظر فلم يجد أشرف من الشمس فسجد لها تعبداً وغير ملوم سيدنا لو أعرض عن شقايق النعمان الربعية ، ومدايحه اليربوعية ، مللا من أهل البلد المضاف إلى هذا الاسم فغير متعذر ، من أبغض لأجلهـــم بنى المنذر ، وهم إلى حضرته السنية رجلان ، سايل ، وقايل ، أما السايل فألح ، وأما القابل فغير مستلح ، وقد سترت نفسى عنها ستر الخميص ، بالقميص ، وأخى الهتر بسجوف الستر ، فظهر بى فضله الذى مثله كمثل الصبح إذا لمع ، تصرف الحيوان فى شئونه وسكع ، فخرج من بيته اليربوع ، وبرز الملك من أجـــل الربوع ، وقد يولع الهجرس ، بأن يجرض ، فى البلد الجرد ، قدام الاسد ، وإنى خبرت أن تلك الرسالة الأولى عرضت على المواطن الاكرم ، فأوجب ذلك رحيل أختها ، متعرضة لمثل بختها ، وكيف لا تنقع ، وفى اليم تقع ، وهى بمقصد سيدنا فاخرة ولو نهيت الاولى لا نتهت الآخرة .

تمت الرسالة الأغريضية ، لأبى العلاء المعرّى تمت بحمد الله وعونه .

وجد فى تأليف أبى العلاء المعرى ما صورته :

أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالى لـكى نحدث عهداً بك يا زين الاخلاء فما مثلك من غيّر عهداً أو غفل .

وهذه الـكلمات تشتمل على أربعة أبيات من بحر الرجز على روى اللام على صورة يسوغ استعمالها عن المروضين وهى :

أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الـ
واجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الـ
خالى لـكى نحدث عهدًا بك يا زين الـ
أخلاء فما مثلك من غيّر عهدًا أو غفل

* * *

فصل فى ثروته وزهده

قد علمت مما تقدّم أن أبا العلاء كان من بيت ثراء وغنى و المتبادر فى مثله أن يكون مثرياً كأهله ، ولكنك لو تتبعت بقية أخباره ، وأنعمت النظر فى أقواله عن نفسه ، سواء أكانت نثراً أو شعراً ، ظهر لك أنه كان على العكس من ذلك . وحسبك تصريحه فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة بأن الذى له فى السنة نيف وعشرون ديناراً يشاركه خادمه فى معظمها . وسيمر بك فى هذا الفصل شىء من أشعاره المنبئة عن إملاقه وحاجته . والحقيقة المزيلة للبس أنه كان على شىء من الثروة نكب فيه قبل قفوله من بغداد ، فعاش بعد ذلك فى كفاف ، بدليل قوله :

أثارنى عنكم أمران والدةٌ لم ألقها وثراء عاد مسفوتا[1]
أحياهما الله عصر البين ثم قضى قبل الإياب إلى الذُّخْرين أنْ مُوتا

يعنى : أحيا الله والدتى ومالى وأنا بعيد عنهما ، فلما أزمعت الإياب قضى على الوالدة بالموت ، وعلى المال بالضياع .

على أنه كان على فقره قنوعاً عيوفاً كبير النفس ، يضرب فى علو الهمة بسهم وافر ، لم يسمع أنه استماح أحداً . أو مدح طمعاً فى نوال ، ومن قوله فى خطبته سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء ، بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان السُّوس[2]،

---

(١) المسفوت : قليل البركة .
(١) السوس . بالضم الطبيعة

فالحمد لله الذى ستر بغفة[1] من قوام العيس . ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر . ومن غرر أقواله فى ذلك :

وإنى تيممت العراق لغير ما ... تيممه غَيْلاَنَ عنـــد بلال
فأصبحت محسوداً بفضلى وحده ... على بعد أنصارى وقلة مالى

غَيْلاَن هو ذو الرُّمة ، كان قصد بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى مستميحاً ، وفيه يقول :

سمعت الناس ينتجعون غيثاً ... فقلت لصيدح أنتجعى بلالا

وصيدح اسم ناقته ، والرواية فى الناس بالرفع على الحكاية ، لأنه سمع من يقول : الناس ينتجعون غيثاً ، فحكى ماسمع ، جزم بذاك المبرد ، وعد الحريرى النصب من الأوهام ، وذهب غيرهما إلى أنه يجوز .

وقال أبو العلاء يصف حاله ببغداد :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة ... تجهانى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى بالعراق على شفى ... رزى الأمانى لا أنيس ولامال
مُقلٌّ من الأهلين يُسْرٍ وأُسْرَةٍ ... كفى حَزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلال
وكم ماجد فى سيف دجلة لم أشم ... له بارقاً والمزن كالمزن هطال
من الغر تراك الهواجـــر معرض ... عن الجهل قذاف الجواهر مفضال
سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته ... لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال

وقال أيضاً :

رحلتُ لم آتِ قِرْوَاشاً أُزَاوِله ... ولا المهذّبَ أبغى النَّيْلَ تقويتا
وللوت أحسن بالنفس التى ألفت ... عز القناعة عن أن تسأل القوتا

(١١) الغفة ، بالضم : البلغة من العيش

قرواش كان والياً ببغداد ، والمهذب وزيره . وروى أن المستنصر الفاطمى خليفة مصر بذل له مافى بيت مال المعزة من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لاأطلب الأرزاق والمولى يفيض على رزقى
إن أعط بعض القوت أعلم أن ذلك فوق حقى

ويعجبنى قوله فى لزوم مالا يلزم :

وكأنما الدنيا كعاب أبنـــا رَجّى لها صِلَةً فذاك يسارُ
وإذا الفتى لحظ الزمان بعينة هان الشقاء عليه والإعسار

وقوله :

نوائب ألقت فى النفوس جراحا عصى كل آسٍ فى البرية سبرها
لى القوت فليغمر سرنديب حظها من الدر أو يكثر بغانة تبرها

سرنديب جزيرة قرب الهند ، فيها مغاوص للؤلؤ ، وتسمى اليوم سيلان وغانة مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب ، هى مدخل بلاد التبر كما فى ياقوت وتطلق اليوم على أرض واسعة فى غربى قارة إفريقية ، تقاسمها الإفرنج بينهم ، واسمها فى لغتهم (Guinee) جينا بالأمالة ، أو : غينا ، والأصل فيه غانة ، كما قدمنا ، والرجوع إليه أولى . ويطلق الإفرنج هذا الاسم أيضاً على أول دينار انجليزى ضرب من الذهب المستخرج من هذه الجهة ، وأبطل الإنجليز التعامل به من سنة ١٨١٧ ميلادية ، واستعاضوا عنه بدينارهم المسمى Souverain سوڤران ، ومن هذه تعرف سبب تسمية المصريين كل دينار بالجنية ،

وكان الصواب أن يسموه بالغانى . إن أرادوا النسبة إلى تلك الجهة ، وإلا فالرجوع إلى الدينار أولى .

وكان شأن أبى العلاء فى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا شأناً عجباً ، ولايذهبن بك الظن فتتوهم أن للفقر مدخلا فى زهده ، فإن من تبذل له الخزائن ، وتعرض عليه الصلات ، لاتستعصى عليه غاية من الغايات ، ولـكنه نظر إلى هذا المتاع الزائل نظر من لم يلهه زخرفة عن استطلاع حقيقتة فصد عنه وزهد فيه جملة ، وأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والإعراض عن العرض الفانى ، فـكان لباسه القطن ، وفراشه اللبد ، وحصيره برديه ، وطعامه الفول والعدس ، وحلاوته التين ، وفيه يقول :

يقنعنى بلسن يمارس لى ... فإن أتتنى حلاوة فبلس[1]
فلس ما اخترت إن أروح من ... يسر قارون عفة وفلس[2]

وسنورد مختار شعره فى الزهد ، متى وصلنا إلى الـكلام على منظومه ، كما أننا سنشبع القول فى سبب تجافيه عن أكل الحيوان ، عند الـكلام على معتقده .

وكان رحمه الله ، على عوزه ورقة حاله ، بذولاً لما عنده ، غير مانع معروفاً عن مستحق ، يتـكلّف فى ذلك ما استطاع . بَلَغَهُ مَرَّةً أنّ شاعراً يلقّب بصريع البَيْن ساءت به الحال ، فأنفذ اليه قدراً من الدراهم ، وأتبعها بقصيدة يقول فيها :

قد استحييت منك فلا تـكِلنى ... إلى شىء سوى عذر جميل
وقد انفـذت ما حقّى عليه ... قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك ، على انفرادك ، قوت يوم ... إذا أنفقت إنفـاق البخيل
فـكيف وأنت عُلوىّ السجايا ... فليس إلى اقتصادك من سبيل

---

(١) البلسن بالضم : العدس ، والبلس بالتحريك : التين .
(٢) الفلس : الأكل .

إلى أن يقول :

فإن يكُ ما بَعَثْتُ به قليلاً ... فلى حال أقلّ من القليل

وحدث القاضى أبى محمد عبد الوهاب بن على بن نصر الفقيه المالكى المشهور ضيق وشدّة ، وهو ببغداد ، فلم ير بُدًّا من الرحيل عنها ، وخرج لتشييعه يوم فَصَل جمع من أكابرها ، وطوائف كثيرة من أهلها ، وما فيهم إلاّ متوجّع لفراقه ، أو آسف على فوات الاستفادة من علمه ، فقال لهم عند الوداع : لو وجدت بين ظَهْرَانَيْكُمْ رغيفين كلّ غداة وعشيّة ما عدلت عن بلدكم . فلم تحرّك مقالته واحدًا منهم ، يتكفّل له بما طلب ؛ فسار عنهم قاصدًا مصر ، واجتاز بمعرّة النعمان ، وبها يومئذ أبو العلاء ، فأضافه واحتفى به ، وفيه يقول :

والمالكىّ ابن نصر زار فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكاً جدلاً ... وينشُرُ الملكَ الضِّلّيلَ إن شَعَرَا[1]

ثمّ حباه عند رحيله بثلاثين درهما ، وخاطبه معتذرا بقوله :

أيَبْسُطُ عذرى منعم أم يخصّنى ... بما هو حقلى من أليم عتاب
قبول الهدايا سُنّةٌ مستحبّةٌ ... إذا هى لم تسلك طريق نحاب
فياليتنى أهديت خمسين حِجّةً ... مضت لى فيها صحتى وشبابى
وقلّتْ له فاترك ثلاثين أسودًا ... متى ما تُكَشَّفْ تُلْفَ غير لُبَاب
إذا أسكت المحتجّ كلّ مناظر ... فعند ابن نصر نجدة بجواب
وما أنا إلاّ قطرة من سحابة ... ولَوْ أننى صَنّفت ألفَ كتاب

---

(١) الملك الضليل : امرؤ القيس .

وبين يديه كفر طاب وإنها تعيش لفقد الماء عيش ضباب
لعلّ الذى أنفذتُ يكفيه ليلةً لإسباغ طهرٍ حَانَ أو لشراب

يقول : لعلّ هذه الدراهم القليلة ، وإن كانت سوداء غير خالصة الفضة، تكفى الشيخ لأن يشترى بها قليلاً من الماء لطهره أو لشرابه ؛ فإنه معرّج على كفر طاب ، وهى قليلة الماء ، وأهلها يعيشون بها عيش الضِّباب ، وإنّما خصّ الضِّبَابَ بالذكر ؛ لأنها تصبر على العطش ، وبعض المحققين من أهل عصرنا يرى أن كفر طاب هى البلدة المسمّاة الآن بإدْلِب ، وهى قصبة قضاء باسمها ، من لواء حلب . ولم تزل قليلة الماء . وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفرها وبَالِسَ أغناها الفُرات عن الحفر[1]
كذلك مجرى الرزق، وَادٍ بلا ندًى ووادٍ به فيض وآخر ذو جَفْر

ولما وصل القاضى عبد الوهاب المذكور إلى مصر ، أقبلت عليه الدنيا ، وانهالت عليه صلات الأمراء ، ولكنه لم يتمتع بشىء منها ، بل مات عقب وصوله من أكلة اشتهاها ، وسمعوه يقول وهو يتقلب ويتململ : لا إله إلاّ الله ، إذا عشنا متنا . وهو القائل فى بغداد :

بغداد دار لأهل المال طيّبة وللمفاليس دار الضَّنك والضِّيق
ظللت حيران أمشى فى أزقّتها كأنى مصحف فى بيت زنديق

(١) بالس ـ كصاحب : بلدة بشط الفرات .

رجع إلى أبى العلاء

وعلى الجملة فلا يختلف اثنان فى علمه وفضله ، ووقوفه على دقائق العربية ، ولا عبرة بمن لحّنه فى قوله :

يذيبُ الرعبُ منه كلَّ عَضْبٍ فلولا الغِمْـــدُ يمسِكُهُ لَسالاَ

بأن مذهب الجمهور وجوب حذف الخبر بعد لولا ، بناء على أنه لا يكون إلا كوناً مطلقاً ، فإذا أريد الكون المقيد جعل مبتدأ ، فكان عليه أن يقول: فلولا إمساك الغمد إياه لسال، أى موجود ؛ وأما التركيب الذى أتى به فتركيب فاسد . انتهى .

قلت : وهذا المخَطِّئُ هو المخطِئُ لاحتمال تقدير يمسكه جملة معترضة بين المبتدأ والجواب والخبر محذوف ، أو تقدير يمسكه بدل اشتمال على أن الأصل أن يمسكه ، ثم حذفت أنْ وارتفع الفعل ، وعلى هذا فالخبر محذوف أيضاً ، والمعنى : فلولا الغمد إمساكه موجود لسال . انتهى ملخصاً من المغنى وحواشيه. هذا إذا خرجنا البيت على مذهب الجمهور الذى تمسك به المعترض ، والمذهب الحق ما ذهب إليه ابن مالك والرمّانى وابن الشجرى والشلوبين ؛ بأن الخبر إذا كان كونا مقيداً ، ولم يدل عليه دليل ، وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل جاز إثباته وحذفه . وعليه فلا وجه للتخطئة فى البيت ، فضلا عن ورود مثله فى الكلام الموثوق به .

وأما ذكاؤه وسرعة فهمه وقوة حافظته ؛ فقد رووا فيها غرائب ، منها ما ينبو العقل عن تصديقه . وقد صرح صاحب معاهد التنصيص بأن الناس فى ذلك حكايات مشهورة يضعونها ، وغالبها مستحيل . إلا أن اشتراط استيفاء أخباره يقضى بذكر ما وقفنا عليه منها ، وعلى القارىء تمييز الغث من السمين .

فمن ذلك : ما نقل عن تلميذه التبريزى أنه كان قاعداً بين يديه فى مسجد بمعرة النعمان يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . قال : وكنت أقمت عدة سنين لم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : أى شىء أصابك ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فقال : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتمم النسق ، فقال : قم وأنا أنتظرك ، فقمت وكلمته بلسان الأَذْرَبِيَّة شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما بدا لى . فلما رجعت إليه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أَذْرَبِيجَانَ . فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد ، فتعجبت غاية العجب ، كيف يحفظ ما لم يفهمه .

ومنه : ما رواه بعض طلبته ، أن جاراً له أعجميا غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائبا ، ولم يمكنه المقام ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغٍ إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ، ومضى الرجل . وقدم جاره الغائب ، فجعل أبو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يبكى ويستغيث ويَلْطِمُ ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأخبر أنه أُخبِر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله .

وهذه الحكاية حكاها الوطواط فى « الغرر والعرر » على غير هذا الوجه . قال : ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزى كان يقرأ عليه فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حَلْقة أبى العلاء ، فسأل عنه ، فأخبر أنه غائب فى بعض شأنه . فقال له أبو العلاء : ما تريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله . فقال : هاتها حتى نوصلها إليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى

نوصلها إليه . قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ولا تسقط منها حرفا . فأوردها عليه . فلما جاء التبريزى أخبر أن رجلا جاء من تبريز ومعه رسالة من أهله ، فقال: ليتكم أخذتموها منه ، فإنى مشوق لما يرد من أخبارهم. فقيل له : إنه قال إنها مشافهة . فتأسف لذلك . فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال له : لا عليك، إنى سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه. فجعل التبريزى يضحك مرة ، ويبكى مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكه وبكائه ، فقال : تارة تخبرنى بما يسرنى فأضحك ، وتارة تخبرنى بما يحزننى فأبكى . انتهى .

ومنه : ماحكاه الأمير أسامة بن مُنْقِذ ، قال: كان بأنطاكية خزانة كتب، وكان الخازن بها رجلا عَلَوِيًّا ، فجلستُ يوما عنده ، فقال لى : قد خبأت لك خبيئة لم تسمع بمثلها فى تاريخ . فقلت : وما هى ؟ قال : صبى دون البلوغ ضرير يتردد إلىّ ، وقد حفّظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أنى أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ماشك فيه ، ثم يتلو علىّ ما سمعه. قلت : فلعله يكون محفوظا له ! فقال : سبحان الله ! كل كتاب فى الدنيا يكون محفوظاً له ؛ ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار إليه ، وهو صبى دميم الخلقة، مجدّر الوجه، على عينيه بياض من أثر الجدرىّ ، كأنه ينظر بإحدى عينيه ، وهو يتوقد ذكاء ؛ يقوده رجل طويل أحسبه من أقاربه. فقال له الخازن : ياولدى ، هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك له ، وهو يحب أن تحفظ اليوم ما يختاره لك ، فقال : سمعا وطاعة ، فليختر ما يريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد ، فإذا مر بشىء يحتاج إلى تقريره فى خاطره ، يقول : أعد هذا ، فأعيده عليه ، حتى أتيت على ما يزيد على كراسة ، ثم قلت : يُقنع هذا من قبل نفسى . قال : أجل حرسك الله . وتَلَا علىّ ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك إلا إن شاء الله . وسألت عنه ، فقيل لى : هذا أبو العلاء

المعرى من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . هكذا يروون هذه الحكاية ، والأمير أسامة المذكور ولد سنة ٤٨٨ أى بعد موت أبى العلاء بنحو تسع وثلاثين سنة ، فالقصة على هذا موضوعة ، اللهم إلا أن تكون وقعت مع بعض أمراء بنى منقذ ، ممن تقدم أسامة .

ومنه أن سَمَّاناً حاسب عميلا له برقاع كان يثبت فيها ما يأخذه منه عند حاجته ، وكان أبو العلاء فى غرفة يسمع محاسبتهما ، وبعد مدة ضاعت الرقاع من السَّمان ، فأخذ يتململ ويتأذى . وبلغ أبا العلاء خبره ، فقال له : ما عليك من بأس ، أنا أملى عليك حسابه . وجعل يمليه عليه على ما فى الرقاع رقعة رقعة ، والسمَّان يكتبها . ثم وجد بعد ذلك رقاعه ؛ فإذا هى مطابقة لما أملاه أبو العلاء . وهـــذا إن صح ، فهو غاية الغايات فى قوة الحفظ والتعليق .

وقريب مما تقدم ، ماروى عن أبى تمام حين سمع البحترى ينشد قصيدته التى أولها :

أأفاق صبٌّ من هوًى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما فرغ من إنشادها ، أقبل عليه باللوم والتقريع ، واتهمه بسرقة شعره ، ثم اندفع يعيد القصيدة حتى أتى على أكثرها . والقصة مشهورة . ومثله ما روى عن المتنبى فى حفظه كتاباً عرض عليه للبيع فى نحو ثلاثين ورقة . ورَوَى مثله الإمام أبو العباس المبرّد ، وهو الثقة فيما ينقل ، فذكر فى كامله أن ابن عباس رضى الله عنه لما أنشده عمر بن أبى ربيعة قصيدته : (أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِرُ) ، ولم يكن سمعها من قبل ، استظهرها من مرة واحـــدة ، وأعادها على الحضور . إلا أن ما نقل عن المعرّى يفوق كل ذلك .

وذكروا أن أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى ، دخل على أبى العلاء وهو بالشام فى جماعة من أهل الأدب ، وأنشده قوله :

وقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاء وَادٍ ... سقاه مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ
نزلنا دوحه[1] فحنا علينا ... حنو للرضعات[2] على الفطيم
وأرشفنا[3] على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حاليةَ العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر مَنْ بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، فدخل عليه المنازى فى جماعة من أدبائها ، وهو لا يعرف منهم أحداً ، فأنشدوه من أشعارهم ، وأنشده المنازى :

لقد عرض الحمام لنا بسجع ... إذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلىّ فقيل : غنّى ... وبرّح بالشجىّ فقيل : ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب ... إذا اندملت أجدّ لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى ... وسكران الفؤاد وإن تَصاحا
كذاك بنو الهوى سَكْرَى مُحَاةً ... كأحداق المَهَا مَرْضَى صِحَاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ! عطفاً على قوله : من بالشام . والراجح عندى أن هذه القصة موضوعة ، لا لغرابتها ، فإن فيما تقدم فى قصته مع السمّان

---

(١) ويروى : تظل غصونه تحنو علينا .
(٢) ويروى : الوالدات .
(٣) ويروى : وأسقانا .

وغيره ما هو أغرب وأعجب ، ولا يبعد على من يستظهر أوراق الحساب رقعة رقعة، أن يسمع صوت المنازى ونغمته فى إنشاده، فيميه ويعرفه بعد ذلك من كلامه ؟ بل لأن الثابت فى الأبيات الميمية أنها لحمدونة[1] بنت زياد الأندلسية ، أثبت ذلك مؤرخو الأندلس ، وجزم به أبو جعفر الرعينى الأندلسى ، وهو من الراحلين إلى المشرق . وملخص ما قاله فى شرحه على بديعية صاحبه ابن جابر : أن بعض المشارقة غرهم بُعدُ ديارها ، وخلوّ بلادهم من آثارها ، فانتحلوا أشياء من شعرها . ومن ذلك نسبتهم أبياتها الميمية للمنازى من شعرائهم. قال : وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود . انتهى . أما الأبيات الحائية فالراجح أنها للمنازى ، ونسبها الصفدى فى شرحه على لامية العجم لابن قاضى ميسلة . والله أعلم .

وقال كمال الدين بن العديم فى تاريخ حلب : بلغنى أن المنازى عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبى العلاء ، فلما وصل إليه أنشده إياها ، فجعل كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت ، سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى الذى هو تمام البيت كما نظمه . ولما أنشده : (نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا) قال أبو العلاء : (حنو الوالدات على الفطيم) فقال المنازى : إنما قلت على اليتيم فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى والله أعلم .

قلت : الشىء بالشىء يذكر ، والحديث ذو شجون . والذى ذكره ابن العديم له نظائر . منها ما رواه طيفور فى تاريخ بغداد عن عمارة بن عقيل. قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له تبلغ مائة بيت ، فابتدأت بصدر البيت فبادرنى إلى قافيته ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منّى أحدٌ

(١) ورد اسمها فى بعض التواريخ : حمده ، وفى بعضها : حميدة ، وفى بعضها : حمدونة .

قط . قال : هكذا ينبغي أن يكون ، ثم أقبل عليّ ، فقال : أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها :

* تشطُّ غداً دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* ولَلدَّار بعد غـدٍ أبْعَدُ *

ثم قال المأمون : أنا ابن ذاك . وفي « تحرير التحبير » لابن أبي الإصبع أن ابن عباس لما كمل البيت ، قال له ابن أبي ربيعة : هكذا والله قلت . فقال عبد الله : وهكذا يكون .

ورُوي أن جريراً والفرزدق حضرا مجلس الوليد بن عبد الملك ، وعَدِي بن الرِّقاع ينشد قصيدته :

عَرَفَ الدِّيارَ توهّما فاعتادها من بعد ما درس البِلَى أبْلاَدَها

فلما انتهى إلى قوله : تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ

تشاغل الوليد عن الاستماع ، وقطع عَدِيّ الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : أراه يستلب بها مثلا ، فقال الفرزدق : يا لُكَع ! إنه سيقول : قَلَمٌ أصاب من الدواة مِدَادَها . ثم عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدي إلى الإنشاد ، فنطق بالعجُز كما قال . فقال جرير للفرزدق : ويحك ! فكأن سمعك مخبوء تحت لسانه ، فقال له : اسكت ، شغلني سبّك عن جيد الكلام ، والله لمّا سمعت صدر بيته رحمته ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً . وفي رواية العقد الفريد عن الأصمعي أن جريراً هو السابق لعجز البيت لا الفرزدق . وقال زكي الدين بن أبي الإصبع في « تحرير التحبير » : الذي أقوله : إن بين ابن عباس وبين الفرزدق في استخراجهما العجزين كما بينهما في مطلق الفضل ، وفضل ابن عباس رضي الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق . فإن بيت

عَدِيّ بن الرِّقَاع من جملة قصيدة تقـــدم سماع معظمها ، وعلم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة بألف منصوبة الرويّ من وزن معروف ، ثم تقدم فى صدر البيت ذكر ظبية تسوق خِشْفاً لها ، قد أخذ الشاعر فى تشبيه طرف قرنه مع العِلم بسواده ، وفى ذلك ما يدل على عجز البيت بحيث يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حُذّاق الشعراء . وبيت عمر مفرد لم تعلم قافيته من أى ضرب هى من القوافى، ولا رويّه من أى الحروف ، ولا حركة رويّه من أى الحركات ، فاستخراج عجزه ارتجالا فى غاية العسر ، ونهاية الصعوبة ، لولا ما أمد الله به هؤلاء القوم من المواد التى فضلوا بها عن غيرهم . ومن حذق عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما ، ودقيق معرفته باختيار الكلام ، جَعْـله قافية الذى أتى به (أبْعَـد) ولم يجعلها (أنْزَح) وكان ذلك ممكناً له ، لكون (أبعد) أسرع ولوجاً فى السمع ، وأسبق إلى الذهن ، وأدخل فى القلب ، وأكثر استعمالا ، وأعرف عند الكافة ، وبها جاء القرآن العزيز دون أنزح ، وهى أحب إلى اللسان ، وأولى بالبيان . انتهى كلامه بنصه .

وقد عَنّ لى أن أورد هنا قصيدة عَدِيّ بن الرِّقَاع ، لأنها لا توجد برمتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدى ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها. قال عَدِيّ بنُ الرِّقَاع يمدح الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء من بنى أمية :

عَرَفَ الدِّيار توهُّماً فاعْتَادَهَا[1] ... من بَعْدِ ما دَرَسَ البِلَى أبْلاَدَهَا
إلاّ رَوَاسِىَ كُلُّهنّ قَدِ اصْطَلَى ... جَمْراً وَأشْعَلَ أهلُها إيقَادَهَا[2]
كَانَتْ رَوَاحِلَ للقُدُورِ فعُرِّيَتْ ... مِنْهُنّ واسْتَلَبَ الزّمَانُ رَمَادَهَا

---

(١) اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها ، والرواية فى الأغانى واللسان : شمل بدل درس . والأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .
(٢) رواية الأغانى : رواكد، بدل : رواسى ، و: حمراء أشعل ، بدل: جمراً وأشعل.

وَتَنَكَّرَتْ كلَّ التَّنَكُّرِ بَعْدَنَا ... والأرضُ تعرفُ بَعْلَهَا[1] وَجِمَادَهَا

ولَرُبَّ واضِحَةِ الجَبِينِ خَرِيدةٍ ... بَيْضَاءَ قَدْ ضَرَبَتْ بِهِ أَوْتَادَهَا[2]

تَصْطَادُ بَهجتُهَا المُلَلَّ بالصِّبَا ... عَرَضًا فَتُقْصِدُهُ ولَنْ يَصْطَادَهَا[3]

كالظَّبْيَةِ البِكرِ الفريدَةِ تَرْتَعِي ... مِنْ أَرْضِهَا قُفَّاتِهَا وَعِهَادَهَا

خَصِبَتْ بها عقد البراق حنينها ... عن عكرها عَلَجَانَها وعَرَادَهَا

كالزَّيْنِ فِي وَجْهِ العَرُوسِ تَبَذَّلَتْ ... بعد الحياء فلاعبت أَرْءَادَهَا[4]

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ... قلمٌ أَصاب من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا[5]

رَكِبَتْ به من عَالِجٍ مُتَحَيِّرًا ... قَفْرًا تُرِيثُ وَحْشُهُ أَوْلاَدَهَا

فَتَرَى محَانِيه التي تَسِقُ الثَّرَى ... والهَبْرَ يُونِقُ نَبْتُهَا رُوَّادَهَا[6]

بانتْ سعادُ وَأَخْلَفَتْ مِيعادَهَا ... وَتباعَدَتْ عنَّا لِتمْنَعَ زَادَهَا

إِنِّي إِذَا ما لم تَصِلْنِي خُلَّتِي ... وتباعَدَتْ عَنِّي اغْتَفَرْتُ بِعَادَهَا[7]

إِمَّا تَرَيْ شَيْبِي تَقَشَّعَ لِمَّتِي ... حتى عَلاَ وَضَحٌ يَلُوحُ سَوَادَهَا[8]

فلقَدْ ثَنَيْتُ يدَ الفتَاةِ وِسَادةً ... لي جاعلا يُسْرَى يدَيَّ وِسَادَهَا

---

(١) البعل : الارض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحده فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولاشىء فيها .

(٢) رواية الأغانى :

ولرب واضحة العوارض طفلة ... كالرئم قد ضربت به أوتادها

(٣) المطل بالصبا : المشغول به المتلهى ، وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٤) الأرءاد : جمع رئد بالكسر ، وهو الذئب ، وأكثر مايكون فى الإناث .

(٥) الروق : القرن .

(٦) تسق تجمع ، والمراد تكرم نباتها . والهبر : المطمئن من الأرض ، وقد ضبط فى لسان العرب : نبتها بالنصب وروادها بالرفع ، والصواب العكس .

(٧) الخلة بالضم : الخليل ، يستوى فيه الذكر والمؤنث ؟ لانه فى الأصل مصدر

(٨) لاحه : غيره .

وأصاحبُ الجيشَ العَرَمْرَمَ فارساً ... فى الخيلِ أشهدُ كرَّها وطرادها

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ بينها ... حتى أقوِّمَ ميلَها وسِنادها

نظرَ المثقِّفِ فى كعوبِ قناته ... حتى يُقيمَ ثِقافُهُ مُنآدها

فسترتُ عيبَ معيشتى بتكرُّمٍ ... وأتيتُ فى سعةِ النَّعيمِ سَدادها

وعلمتُ حتَّى ما أسائلُ واحدا ... عن علْمِ واحِدَةٍ لكى أزدادها

صلى الإلهُ على امرىءٍ ودَّعتُهُ ... وأتمَّ نِعمتَه عليه وزادها

وإذا الرَّبيعُ تتابعتْ أنواؤه ... فسقى خُناصِرةَ الأحصِّ فجادها[1]

نزلَ الوليدُ بها فكانَ لأهلها ... غَيْثاً أغاثَ أنيسَها وبلادَها

أوَ لا ترَى أنَّ البريَّةَ كلَّها ... ألقتْ خزائنها إليه فقادها

ولقد أراكَ اللهُ إذْ ولّاكها ... مِنْ أمَّةٍ إصلاحَها ورَشادها[2]

وعمرتَ أرضَ المسلمينَ فأقبلتْ ... ونفَيتَ عنها مَنْ يُريدُ فسادها[3]

وأصبتَ فى بلدِ العدُوِّ مُصيبةً ... بلغتْ أقاصِىَ غوْرِها ونجادها

ظفراً ونصراً ما تناوَلَ مِثلَهُ ... أحدٌ من الخلفاءِ كانَ أرادها

وإذا نشرْتَ له الثَّناءَ وجدْتَهُ ... جمَعَ المكارمَ طِرْفَها وتِلادها[4]

غلَبَ المسامِيحَ الوليدُ سماحةً ... وكفى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسَادها

تأتيهِ أسلابُ الأعِزَّةِ عَنْوَةً ... قسْراً ويَجْمَعُ للحُروبِ عتادها[5]

---

(١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، وهى قصبة كورة الأحص .

(٢) رواية العقد الفريد والأغانى : ولقد أراد الله .

(٣) رواية الأغانى : وكففت ، بدل : ونفيت .

(٤) الطرف والطريف والطارف : المال المستفاد . والتلاد : القديم الأصلى .

(٥) العتاد بالفتح . العدة والأهبة ، وروايه العقد الفريد :

لم تأته الأسلاب إلا عنوة ... غصبا ويجمع للحروب عتادها

وإذا رأى نارَ العدوِّ تضرَّمتْ ... سامَى جماعَةَ أهلِها فاقتادَها
بعرَمْرَمٍ تبدُو الرَّوابى ذى وَعًى ... كالحرَّة احتمل الضُّحَى أطوادَها[1]
أطفأتَ نارًا للحروب وأوقدَت ... نارٌ قدحتَ براحتيك زِنادَها
فبدت بَصِيرتُها لِمنْ يَبْغِى الهُدَى ... وأصاب حرُّ شَدِيدها حُسَّادها
وإذا غَدا يوماً بنفْحَةِ نائلٍ ... عرَضتْ له الغدَ مثلُها فأعادها
وإذا عدَت خيلٌ تُبادِرُ غاية ... فالسابق الجالى يقودُ جيادها[2]

تمت القصيدة. ويروى أن عَدِيًّا أنشدها الوليد وعنده كُثَيِّر، وكان قد بلغه عن عدى أنه يطعن على شعره، ويقول: هذا شعر حجازى مقرور، إذا أصابه قُرُّ الشام جمد وهلك. فلما أتى عدى على قوله:

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمَعُ بينها ... حتى أقوِّم ميلها وسِنادها

قال له كثير: لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً، لم تأت فيها بميل ولاسناد، فتحتاج إلى أن تقومها. ثم أنشد:

نَظَرَ المثقِّفِ فى كُعُوب قناتِهِ ... حتى يُقِيم ثِقافُه مُنآدَها

فقال كثير: لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء، ولأن تسكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها. ثم أنشد:

وعَلِمْتُ حَقَّ ما أُسَائِلُ واحِدا ... عن علمِ وَاحِدةٍ لكىْ أزْدادَها

فقال كثير: كذبت وربِّ البيت الحرام، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك، وما كنت قط أحمق

---

(١) الوعى بالمهملة: الجلبة، والحرة بالفتح: الأرض المصلبة الغليظة، والمعنى: أن الآل الذى يكون فى الضحى رفع جبالها، فان رآها الناظر رأى أنها قد طالت وعظمت.
(٢) فى الأصل: وإذا عدت خيلا يبادر غاية.

منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومَنْ حضر، وقُطع عَدِيّ ابن الرِّقاع حتى ما نطق .

وروى عن محمد بن المنجّم أنه قال : ما ذُكر لى أحد فأحببت أن أراه ، فإذا رأيته مرات بصفعه ؛ إلا عدى بن الرِّقاع ، لقوله :

وعلمت حتى ما أسائل . . . البيت . فكنت أعرض عليه أصناف العلوم فكلما مر به شيء ، ولا يحسنه ، أمرت بصفعه .

obeikandl.com

فصل فى مؤلفاته

قال أبو العلاء : لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، الى أن أضطر الى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فِىَّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . انتهى .

وقد رتبنا أسماء هذه الكتب على حروف المعجم ، تسهيلا على المطالع . واعتمدنا فيما ذكرناه منها على ما فى « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبى ، وغيرهما من كتب التراجم والأخبار . وتكلمنا على ما وقفنا عليه منها بما يتسع له هذا المختصر :

(١) أدب العصفورين : رسالة ذكرها ياقوت ، وصاحب كشف الظنون

(٢) استغفر واستغفرى : كتاب فى المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ، ويقع فى مائة وعشرين كراسة ، ذكره ياقوت ، وأهمله صاحب الكشف .

(٣) إسعاف الصديق : فى ثلاثة أجزاء ، يتعلق بكتاب الجمل فى النحو للزجّاجى المتوفى سنة ٣٣٩ . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(٤) إقليد الغايات : كتاب لطيف ، قصره على تفسير ما جاء من اللغز فى كتابه : الفصول والغايات ، ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(٥) الأمالى : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب الكشف : هو مائة كراسة ولم يكمله .

(٦) الأيك والغصون : ذكره ياقوت وصاحب الكشف فى حرف

الكاف فى الكتب ، ويسمى أيضاً بالهمزة والردف ؛ لأنه بناه على إحدى عشرة حالة للهمزة فى حال إفرادها وإضافتها . مثاله : سماء بالرفع والنصب والخفض ، سماء بالتنوين ، سماؤه سماءه سمائه بالحركات الثلاث مع الإضافة للضمير المذكر ، سماؤها سماءها سمائها بها مع الإضافة للمؤنث ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل : عباءة وملاءة . فإذا ضربت الإحدى عشرة فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية ، وهى مستوفاة فى هذا الكتاب . وذكر فيه أيضاً الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف . ومبناه على العظات وذم الدنيا . ومقداره ألف ومائتا كراسة ، تقع فى اثنين وتسعين جزءاً كما ذكر ياقوت . وقال ابن خلكان : بلغنى أن له كتاباً سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء، فى الأدب ؛ وحكى لى من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، فقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد .

(٧) بحر الزجر : يتعلق بكتاب « زجر النابح » ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى كشف الظنون .

(٨) تاج الحرة : فى عظات النساء خاصة ، وتختلف فصوله ، فمنها مايجىء بعد حرفه الذى يثبت ثبات الروى ياء التأنيث ، كقوله : شائى وتشائى وتسائى ونحوها . ومنه ماهو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها مايجىء على تفعلين ، مثل ترغبين وتذهبين ، وأنواع هذا الكتاب كثيرة ، ويقع فى أربعمائة كراسة ، كما فى ياقوت وكشف الظنون .

(٩) تضمين الآى . لم يذكره صاحب كشف الظنون ، وقال ياقوت : هو كتاب مختلف الفصول ؛ فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد ألف ، مثل أن يقال فى الهمزة : بناء ونساء ، وفى الباء : ثياب وعباب . ثم

على هذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول على فاعلين وعلى فاعلون وغير ذلك. والغرض أن يأتى بعد انقضاء الكلام بآية من الكتاب العزيز أو بعض آية ، وربما يجىء بآيتين . قال : والسبب فى تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف شيئاً فى غير العظات ، والحث على تقوى الله، فأملى هذا الكتاب ، ويقع فى أربعمائة كراسة .

(١٠) تعليق الجليس: مما يتصل بكتاب الجمل للزجّاجى ، فى جزء واحد. ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى الكشف .

(١١) تفسير خطبة الفصيح : فسّر فيه غريب كتابه خطبة الفصيح ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٢) تفسير الهمزة والردف فى جزء ، ذكره ياقوت ولم يذكر فى الكشف .

(١٣) جامع الأوزان : فيه شعر منظوم على معنى يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل ، بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب ، به تسعة آلاف بيت ، ومقداره ستون كراسة فى ثلاثة أجزاء . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٤) الجلى والحلبى : هكذا ورد فى نسخة ياقوت ، وكتب مصححه : لعله « الحلى الحلبى » سأله فيه صديق له من أهل حلب ، يعرف بابن الحلى ، مجلد واحد وعشرون كراسة . ولم يذكر فى كشف الظنون .

(١٥) الحقير النافع : مختصر فى النحو . خمس كراسات ، كما فى ياقوت والكشف ، وذكره السيوطى فى بغية الوعاة .

(١٦) خادم الرسائل : فى تفسير ما تضمنته رسائله من الغريب ، سواء

أكانت من الرسائل الطوال ، كالفقران واللائكة ونحوهما ؛ أو ما دونها . ولم يذكر فيه إلا ما يحتاج إليه المبتدئون فى الأدب ، وسماه صاحب كشف الظنون : خادمة الرسائل .

(١٧) خطبة الفصيح : تكلم فيه عن أبواب الفصيح فى خمس عشرة كراسة ، كما فى ياقوت والكشف ، وله تفسير غريبه ، وقد مضى ذكره .

(١٨) خُطب الخيل : تكلم فيه على ألسنتها فى عشر كراسات ، كما فى ياقوت والكشف .

(١٩) خاصية الرياح : قال ياقوت : هو كتاب لطيف فى ذم الخمر ومعنى هذا الوسم أنه بنى على حروف المعجم ، فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجعات مضمومات ، وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات . وخمساً موقوفات . يكون مقداره عشر كراسات . وتصحف اسمه على صاحب كشف الظنون بحماسة الراح ، فذكره فى حرف الحاء .

(٢٠) دعاء الأيام السبعة . ذكره ياقوت .

(٢١) دعاء ساعة : ذكره أيضاً .

(٢٢) دعاء وحرز الخيل : ذكره أيضاً .

(٢٣) ديوان الرسائل : وهى ثلاثة أقسام كالفقران والسندية ونحوهما ، وسنذكر منها ما وقفنا على اسمه . ومنها ما دون تلك ، كالرسالة الإغريضية ، ورسالة المَنِيح . ومنها قصار كنحو ما تجرى به العادة فى المكاتبة . قال ياقوت وصاحب كشف الظنون : إنها تقع جميعها فى ثمانمائة كراسة . وقد طبع قسم من هذه الرسائل فى بيروت وأكسفورد ، وعندى منها نسختان مخطوطتان فى إحداهما مكاتبات جرت بينه وبين ابن أبى عمران داعى الدعاة بمصر ، وهى

التى لخصها ياقوت فى إرشاد الأريب ، وقد مضى أنه شرح رسائله فى كتابه : خادم الرسائل .

(٢٤) ذكرى حبيب : ذكره صاحب الكشف ، وقال ياقوت : إنه مختصر فى غريب شعر أبى تمام ، سأله فيه صديق له من الكتاب . مقداره ستون كراسة فى أربعة أجزاء . وقال ابن خلكان : إنه اختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه : ذكرى حبيب . وفى مقدمة شرح ديوان أبى تمام للتبريزى أن أبا العلاء إنما ذكر فى هذا الكتاب الأبيات المشكلة من شعر أبى تمام متفرقة . ومن فوائده التى نقلها عنه أن شعر أبى تمام إنما أغلق ، لأنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضَّمَّنَةُ من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، وأوقعوا الناظر بما جَنَوْهُ فى أم أَدْرَاصٍ[1] وتُفلسَ ، وغيّروا الأحرف بسوء التصحيف ، فغادروا الفهمَ خابطاً فى عشواء لأن تغيير الضمة إلى الفتحة والكسرة ، يُنْشِبُ الغطن فى حِباكة ؛ فأما نقل الحاء إلى الخاء ، والدال إلى الذال ، فيحدث عنه إلباس ، ويقرن به بلادة وإشكاس .

(٢٥) الراحلة : ثلاثة أجزاء فى تفسير لزوم ما لا يلزم . ذكره ياقوت فقط .

(٢٦) راحة اللزوم : يشرح فيه ما فى لزوم ما لا يلزم من الغريب ، نحو مائة كراسة ، كما فى ياقوت والكشف .

(٢٧) الرسالة الحضِّية : كذا ذكرها ياقوت .

(٢٨) الرسالة الزعفرانية : ذكرها صاحب الكشف ولم يذكرها ياقوت .

---

(١) أم أدراس : الداهية . ويقال: وقع فى وادى تفاس غير مصروف كتغيب وتهلك، فى داهية منكرة ، والأصل فيه أن الغارات كانت تقع بكرة يفلس .

(٢٩) الرسالة السندية : ذكرت فى ياقوت والكشف .

(٣٠) رسالة العروض : هكذا فى كشف الظنون ، وفى نسخة ياقوت : الفرض بالفاء ، ولعله القَرْضُ أو القريض بالقاف .

(٣١) رسالة لسان ملك الموت : ذكرها ياقوت ، ولا أدرى إن كانت رسالة الملائكة أو غيرها .

(٣٢) رسالة الغفران . كتبها لعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح، جوابا على رسالة أرسلها له يذكر بها شوقه إلى لقائه ، وينحى فيها على الزنادقة، ويتنقص الوزير المغربى صديق أبى العلاء . فأجابه برسالة الغفران ، وضمنها فنوناً شتى من اللغة والأدب ، ونحا فيها نحـواً غريباً ، فاستطرد إلى الجنة ، فوصفها وصفاً يشوق النفوس إليها ، ويرغبها فى نعيمها ، وذكر النار وأهوالها بطريقة لا تسأمها النفس . وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ ، وعندى منها نسختان مخطوطتان ، وبدار الكتب الخديوية بالقاهرة نسخة من كتب الاستاذ الشنقيطى — رحمه الله — وفى القُسْطَنْطِينِيَّة العظمى نسخة فى خزانة الكبريلى . وكنت فى شوق لرسالة ابن القارح المذكورة ، حتى ظفرت بها فى مجموع نفيس وقع لى .

(٣٣) رسالة الملائكة : اقتصر ياقوت وصاحب الكشف على ذكر اسمها وقال أبو الفضل المؤيد بن الموفق الصاحبى فى كتاب « الحكم البوالغ ، فى شرح الكلم النوابغ » : رسالة الملائكة ، ألفها أبو العلاء المعرى على جواب مسائل تصريفية ألقاها إليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الطريق الظريف المشتمل على الفوائد الأنيقة . انتهى . قلت : وأسلوبه فيها غريب ، افتتحها معتذراً للسائل بكبر سنه ، وبُعد عهده بالمسائل النحوية والصرفية ، وقربه من الموت . ثم بدأ فى الجواب فقال : « أفتَرَانى أدافعُ مَلَكَ الموت ، فأقول : أصل

ملك مألك . . ألخ » فساق هذا البحث فى مناقشته مع الملك ، وأتى بشواهد من كلام العرب ، إلى أن انتقل إلى بحث آخر ، فقال : « فيقول الملك : من ابن أبى ربيعه وأبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت سعيد ، وإلا فاخسأ وراءك ، فأقول : فأمهلنى حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة . . . الخ » ثم انتقل إلى ناكر ونكير ، فباحثهما عن اسميهما ، وهكذا حتى أتم الإجابة عن الأسئلة فى هـذا السياق العجيب . وعندى من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموع ، وبدار الكتب الأزهرية بالقاهرة أخرى ، وقد أوردها السيوطى بتمامها فى كتابه الأشباه والنظائر النحوية .

(٣٤) رسائل المعونة : وهى التى كتبها على لسان غيره ، ذكرها ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٥) رسل الراموز : نحو ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت .

(٣٦) الرياش المصطنى : فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، ألفه للأمير مصطنع الدولة أبى غالب كليب بن على ، وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئاً مما لم يذكره أبو رياش ، فخشى أن تضيق الحواشى عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب فى أربعين كراسة . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٣٧) زجر النابح : يتعلق بلزوم مالا يلزم ، وذلك أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم ، يريد بها التشرّر والأذيّة ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه بإنشائه ، فأنشأه وهو كاره . مقداره أربعون كراسة فى جزء واحد . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . وله كتاب يتعلق بهذا ورد اسمه فى نسخة ياقوت « بحر الزجر » وقد مضى ذكره .

(٣٨) السادن : أنشاه فى تفسير غريب كتابه الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز . مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف

(٣٩) السجعات العشر : موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات فى المواعظ . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٠) سجع الحمائم : تكلم فيه على لسان حمائم أربع ، وكان بعض الرؤساء ساله أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فانشأ هذا الكتاب ؟ وجعل ما يقوله على لسان الحمامة فى العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة فى أربعة أجزاء . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٤١) السجع السلطانى : يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة ، سأله فيه بعض من خدم السلطان ، وارتفعت طبقته ، ولم يكن له قدم فى الكتابة ، فطلب أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، ولا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب . فألف له هذا الكتاب . قال ياقوت : فى أربعة أجزاء ؛ وقال صاحب الكشف : إنه ثمانون كراسة .

(٢٢) سجع الفقيه : جزء فى ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٣) سجع المضطرين : كتاب لطيف ، عمله لرجل تاجر مسافر ، يستعين به على أمور دنياه . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٤) سقط الزند : وهو ديوان يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ضمنه شعره فى صباه . وسماه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزند ، فشبه شعره الأول به . قال التبريزى : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يقرأ عليه شعره فى صباه ، الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه ، ويقول

معتذراً عن تأبّيه وامتناعه من سماع هـذا الديوان : مدحت نفسى فيه ، فلا أشتهى أن أسمعه . وكان يحثنى على الاشتغال بغيره من كتبه . انتهى . ولهذا الديوان شروح ، أولها شرح لأبى العلاء نفسه سماه (ضوء السقط) وهو غير وافٍ ، نقله عنه التبريزى ، وأوضح مشكلاته ، وذكر اللغة الغريبة ، واقتصر فى تفسير المعانى على مالا بد منه . ثم تناوله أبو يعقوب يوسف بن طاهر النحوى ، فأصلحه وزاد فيه ، وسماه : « التنوير » وطبع بمصر غُفْلاً من اسم مؤلفه . ومن شروح هذا الديوان شرح الفخر الرازى ، و « ضرام السقط » لمجد الدين أبى الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمى المشهور بصدر الأفاضل النحوى ، وقفت على نسخة منه فى خزانة آل رفاعة بالقاهرة . و « الزوائد » لأبى رشاد الإخسيكتى ، و « العمدة » لابن البارزى ، وشرح ابن السيِّد البَطَلْيُوسىْ وهو عزيز الوجود ، وقعت لى منه أوراق من نسخة قديمة ، فإذا به شرح على ديوان ممزوج من سقط الزند واللزوميات . وقد انتقد أبو بكر بن العربى على مواضع منه ، فردّ عليه ابن السيِّد فى رسالة لطيفة ، وقفت عليها وهى عندى . وللشيخ تاج الدين بن عبد الرحمن شرح على قصيدة لامية من هذا الديوان مطلعها :

* ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل *

سماه : « مراقى العلا ، فى شرح لامية أبى العلا » وهو عندى فى مجموع .

(٤٥) سيف الخطيب : هكذا فى الكشف ، وفى ياقوت « سيف الخطبة » وهو جزءان ، يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهى مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ، وعلى الراء ، وعلى اللام ، وعلى الميم ، وعلى النون ، وتركت الجيم والخاء وما يجرى مجراهما ؛ لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجْسَجاً[1]

(١) السجسج : الذى بين الضلابة واللين . والهواء السجسج : ليس بحار ولا بارد .

سهلا مقداره أربعون كراسة . وكان سأله فيه رجل من المتظاهرين بالديانة .

(٤٦) شرح الرسالة الإغريضية : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف . مقداره عشرون كراسة . وللشيخ إبراهيم الفصيح بن صبغة الله الحيدرى ، من علماء أواخر القرن الثالث عشر ، شرح على الرسالة الإغريضية ، سماه : النوادر الحكمية والأدبية ، ألفه برسم مصطفى باشا بن إبراهيم بن محمد على والى مصر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

(٤٧) شرح كتاب سيبويه : فى النحو ، فى خمسين كراسة ، ولم يتمه . كما فى ياقوت والكشف وبغية الوعاة .

(٤٨) شرف السيف . قال ياقوت : عمله لنشتكين الدرزى الذى كان مقيما بدمشق ، والسبب فيه أنه كان يوجه إلى أبى العلاء بالسلام ، ويخفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل . وهو فى جزءين . وفى كشف الظنون : «شرف السلف عشرون كراسة عمله لأمير الجيوش» .

(٤٩) الصاهل والشاحج : يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، مقداره أربعون كراسة ، صنفه لأبى شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة والى حلب من قبل المصريين ، وكان روميا . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف فى الرسائل . وفى خطط المقريزى ج ٢ ص ١٥٤ رواية رواها أبو العلاء فى الصاهل والشاحج ، للبيتين : زر وادى القصر . . . الخ .

والشاحج : البغل ؛ وشَحيجه ، وشُجاجُهُ : صوته .

(٥٠) ضوء السقط : فسر فيه غريب ديوانه سقط الزند ، مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان . وقد فَصَل بعضهم الدرعيّات من سقط الزند ، وطبعها على حدة فى بيروت ، وسماها : ضوء السقط ، وهو خطأ ينبغى أن يُتَنَبَّهَ له .

(٥١) الطَّلّ الطاهرى : أنشأه لرجل يعرف بأبى طاهر . ذكره ياقوت ولم يذكر فى الكشف .

(٥٢) ظهير العضدى . يتصل بالكتاب المعروف بالعضدى فى النحو . ذكره ياقوت وصاحب الكشف والسيوطى .

(٥٣) عبث الوليد : يؤخذ من عبارة ابن خلكان أنه اختصر فيه شعر البحترى وشرحه ، واسم الكتاب لا يدل على ماقال . وقال غيره . إنه يتضمن أغاليط البحترى . وقال ياقوت : إنه يتصل بشعر البحترى ، وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليُقَابَل بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد فى عشرين كراسة . أقول : قد وقعت لى نسخة من هذا الكتاب ، فوجدتها كما قال ياقوت ، والخطأ الذى يذكره أبو العلاء تارة يكون من النسخة المرسلة إليه ، وتارة من الناظم نفسه ؛ ولهذا سماه بعبث الوليد توريةً باسمه ، لأن البحترى اسمه الوليد . والوليد أيضاً : الصبى ، فكأنه قال : لعب الصبى وخلطه . ورتب فيه الأبيات التى تعرض لها على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، وله فيه فوائد وآراء ؛ كقوله فى بيت البحترى فى وصف فرس :

أخواله للرُّسْتَمِينِ[1] بفارس وجدوده للتُّبَّعِينِ بِمَوْكِلِ[2]

قال : يروى الرُّسْتَمِينَ على الجمع وكذلك التُّبَّعِين ، ويروى بالتثنية ، والجمع أشبه ؛ لأنه قال أخواله فجَمع ، وكذلك قال جدوده . فأن تكون الأخوال والجدود للوك كثيرة أشبه من أن تكون للكين . انتهى كلامه .

---

(١) رستم : بضم الراء وسكون السين وفتح المثناه الفوقية ، وقد تضم .

(٢) مع كل موضع ، ولانظير له إلا مورق اسم ملك الروم وموزن وموهب ومؤظب وموحد ، والقياس فيما كانت فاؤه حرف علة أن يكون المفعل منه مكسور العين ، مثل موعد ومورد لكن جاءت هذه شاذة .

قلت : وقد يقال أيضاً فى ترجيح مارجّحه أن لا وجه لتخصيص اثنين من تبايعة اليمن بالذكر ؛ لأنه لم يسمع عن اثنين مخصوصين منهم امتازا بشهرة تصرف إليهما الأذهان ، إذا ذكر التُّبعان ، وما يقال فيهما يقال فى الرستمين، فرواية الجمع أرجح وأقرب إلى الصواب .

(٥٤) عظات السور : ذكره ياقوت ، ولم يتكلم عليه .

(٥٥) العظة والزهد : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، وقال : مائة وعشرون كراسة .

(٥٦) عون الجُمَل : قال ياقوت : يتصل بكتاب الزَّجّاجى ، عمله لأبى الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وهو آخر شىء أملاه ، وفى كشف الظنون أنه شرح لشواهد جُمَل الزَّجّاجى لم يتم ، وكذلك فى بغية الوعاة للسيوطى .

(٥٧) الفصول : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فقال : إنه غير الفصول والغايات ، وهو أربعمائة كراسة .

(٥٨) الفصول والغايات : هو الكتاب الذى زعم شَانِئُوه أنه عارض به القرآن الكريم ، وسماه الفصول والغايات فى معارضة السور والآيات ، وسنشبع القول فى هذا الزعم عند الكلام على معتقده . وليس فى هذا الكتاب إلا عظات ونصائح ، والمراد بالغايات القوافى ؛ لأن القافية غاية البيت أى منتهاه ، وهو موضوع على حروف المعجم ماخلا الألف ؛ لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألف ، ومن المحال أن يجمل بين ألفين . ولكن تجىء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء ، وكذلك الشراب والسراب فى الباء ، ثم على هذا الترتيب ، وليست حروفه المبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجىء مختلفة ، وفيها ما يجىء على نسق واحد . وقيل : إنه بدأ فيه قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعد عوده إلى المعرة ، ومقداره مائة كراسة .

ذكره ياقوت وصاحب الكشف . ويتعلق بهذا الكتاب : إقليد الغايات ، والسادن ، وقد مر ذكرهما .

(٥٩) فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه . ضمنه بعض فضائله . ذكره ياقوت فقط .

(٦٠) قاضى الحق : يتصل بكتاب الكافى فى النحو لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٦١) القائف : ذكره صاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، وسقط من نسخة ياقوت المطبوعة ، إلا أن كلامه على كتابه المسمى بمنار القائف دلالة على أن له كتاباً بهذا الاسم .

(٦٢) اللامع العزيزى ، فى شرح شعر المتنبى ، صنفه للأمير عزيز الدولة ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال ، مقداره مائة وعشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان وغيرهم ، ومنه نسخة بخزانة لا له لى بالقسطنطينية رقمها (١٨٢٥) .

(٦٣) لزوم مالا يلزم : هو ديوان كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة : الضمة والفتحة والكسرة والسكون . ومعنى لزوم مالا يلزم أنه يلتزم قبل الروى حرفاً إذا غير لم يكن مخلا بالنظم . قال فى خطبته : إنه ذكر فيه ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد ، أو تذكير للناسين ، وتنبيه للغافلين ، أو تحذير من الدنيا ؛ فإن جاوز المشترط فإن الذى جاوز إليه قول عرىّ من المين . وهو أحد كتبه التى تكلموا فيها ، وسنفصل القول فيه عند الكلام على معتقده وشعره . طبع بالهند سنة ١٣٠٣ وبمصر سنة ١٨٩١ — ١٨٩٥ ميلادية . وكان الأديب الفاضل الشيخ أحمد الفحاوى النابلسى ، نزيل مصر رحمه الله تعالى ، مشتهراً بكتابة نسخ من هذا الكتاب ،

يتحرى فيها الصحة ، ويطرزها بالحواشى المفيدة ، ثم يبيع النسخة بعشرين ديناراً مصرياً ، فيتنافس فى اقتنائها أعيان مصر وسرانها ، وعندى منها نسختان . ووقعت لى نسخة مخطوطة من مختصر له ، اسمه : مختار لزوم ما لا يلزم ، تنقص أوراقا من أولها ، ويبتدئ ما فيها من أثناء قافية الباء المضمومة ، ولذهاب أولها لم أقف على اسم مؤلفها . ولأبى العلاء شرح عليه سماه : راحة اللزوم ، وله أيضاً : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة . وكلها تتعلق باللزوميات ، وقد مضى ذكرها .

(٦٤) مبهج الأسرار : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب كشف الظنون : لأبى العلاء ، ولم يقل المعرى ، واسم الكتاب يدل على أنه لغيره .

(٦٥) مثقال النظم : فى العروض . ذكره ياقوت والسيوطى فى بغية الوعاة.

(٦٦) مجد الأنصار ، فى القوافى . ذكره ياقوت .

(٦٧) المختصر الفتحى : يتصل بكتاب محمد بن سعدان ، صنفه لرجل يكنى أبا الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وكان أبو هذا الرجل تولى إثبات ما ألفه أبو العلاء من جميع كتبه ، فألزمه بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى كثيرة . كذا ذكر ياقوت .

(٦٨) معجز أحمد : لم يذكره صاحب الكشف ، ويذهب بعضهم إلى أنه هو اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبى . ويستفاد من عبارة ابن خلكان أنه غيره ، وأن أبا العلاء اختصر ديوان المتنبى ، وتكلم على غريبه ، وذكر سرقاته وما أخذ عليه فى هذا الكتاب . ومن فوائده التى ذكرها فيه ، ونقلها عنه أصحاب البديع ، استنباطه لنوع من البديع سماه « الطاعة والعصيان » عند كلامه على قول المتنبى :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

فزعم أنه أراد أن يقول وهو مستيقظ ليطابق بينه وبين راقد ، ولما عصاه الوزن عدل عنه إلى قادر ، وفيه معنى مستيقظ وزيادة ، فأطاعه التجنيس المقلوب بين قادر وراقد ، وعصته المطابقة بين راقد ومستيقظ . ورد عليه زكى الدين بن أبى الإصبع بأن ليس فى البيت شىء من ذلك ، لإمكان أن يقول وهو ساهر بدل قادر . انتهى . وجل من أتى بهذا النوع من أصحاب البديعيات ، لم تسلم أبياتهم من مثل هذا النقد .

(٦٩) ملقى السبيل : مختصر فيه نظم ونثر ، ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ووقعت لى نسخة منه ، فوجدته فى المواعظ مرتباً على حروف المعجم ، يذكر فى كل حرف فقرات من النثر ، ثم يتبعها بأبيات من القافية ؛ كقوله فى حرف الحاء : إن ابن آدم شحيح ، سوف يمرض من القوم صحيح ، يعصف بعقله الريح ؛ إن ذلك لهو التبريح .

يأيها المسك الشحيح ... سيمرض السالم الصحيحُ
ما لك لم تنتفع بعقل ... هل عصفت بالعقول ريحُ
إن شُيِّد القصر فى سرور ... فبعده يُحفر الضَّريحُ
ويَطرح الهمّ بالمنايا ... مَنْ جسمُه فى الهوى طريحْ

(٧٠) منار القائف : فى تفسير ما جاء من اللغز والغريب فى كتابه القائف ، مقداره عشر كراريس . ذكره ياقوت .

(٧١) المواعظ الست : ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ومعنى هذا الاسم أن الفصل الأول منه فى خطاب رجل ، والثانى فى خطاب اثنين ، والثالث فى خطاب جماعة ، والرابع فى خطاب امرأة ، والخامس فى خطاب امرأتين ، والسادس فى خطاب نسوة . فى خمس عشرة كراسة .

(٧٢) نشر شواهد الجمهرة : لم يذكر فى الكشف ، وقال ياقوت : إنه فى ثلاثة أجزاء ، ولم يتم .

(٧٣) نظم السور : ستة كراريس ، ذكره صاحب الكشف ، وجاء فى نسخة ياقوت : تظلم السور ، بالمثناة الفوقية ، ولعله تحريف .

(٧٤) وقعة الواعظ : هكذا فى نسخة ياقوت ، وقال مصححه : لعله برقعة الواعظ ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

* * *

وله سوى ذلك كتب فى العروض والشعر بدأبها ولم تتم . ورأيت بعض العصريين ينسب إليه كتابا اسمه الفصوص ، ويزعم أنه سقط منه فى الدجلة ، وهو يحمله إلى أحد الأمراء ببغداد ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه أبو العلاء بقوله :

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

والصواب أن هذا الكتاب لأبى العلاء صاعد اللغوى البغدادى ، أحد الراحلين إلى الأندلس ، وبها ألفه ، ووقعت له هذه القصة . وسببها أنه استأذن من المنصور بن أبى عامر فى إملاء كتاب بجامع مدينة الزهراء ، يفوق أمالى أبى على القالى التى أملاها بقرطبة فى دولة عبد الرحمن وابنه الحكم ، واشترط أن لا يورد فيه خبراً أورده القالى . فأذن له فى ذلك ، فأملى كتاب الفصوص ، ولما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . وكان صاعد متهماً بالكذب جريئاً عليه ، فأراد المنصور امتحانه ، فعمد إلى كراريس بيض وأمر أن تجلد وتزال جدتها حتى يتوهم فيها القدم ، وترجم

عليها كتاب النكت تأليف أبى الغوث الصنعانى ، فترامى إليه صاعد حين رآه وجعل يقبله ، ويقول : إى والله ، قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان ، فاخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه ، وقال : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوى ؟ فقال : وأبيك لقد بعد عهدى به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعد الله مثلك ، فما رأيت أكذب منك . وأمر بإخراجه وإلقاء كتاب الفصوص فى النهر ، فقال فيه بعض الشعراء ، وأجابه صاعد بما تقدم .

قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترىء على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتى إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب . انتهى .

ومن جراءته على الكذب نادرته فى الخنفشار ، وذلك أن المنصور سأله يوماً عنه ، فقال على البديهة : هو حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم .

لقد عقدت محبتها بقلبى كما عقد الحليبَ الخنفشارُ

ورواية هذه اللفظة بالخاء المعجمة والفاء هو المشهور فى كتب الأدب والتاريخ وقد رويت بالباء الموحدة فى نسختى نفح الطيب المطبوعتين بمصر . ووردت فى التى طبعت بأوربا بالحاء المهملة والباء الموحدة ، ورواية البيت فيها :

لقد عُقِدت محبتُها بقلبى كما عُقِد الحليبُ بحنبشار

إلا أن المصحح ذكر بالحاشية ورودها فى بعض النسخ بالخاء المعجمة والباء الموحدة ؛ وفى أخرى بالخاء أيضاً والفاء ، وهو الصواب على ما ترجح عندى ، وما عداه محرف عنه . وسببه أن صاحب نفح الطيب تلمسانى كما هو معلوم ، وقاعدة المغاربة فى الكتابة نقط الفاء بنقطة من تحت ، فيظهر أن نسخة الأصل

كتبت بخط مغربى ، وطمس الكاتب رأس الفاء ، فظهرت بصورة الباء لمكان النقطة التحتية ، وتصحيف الخاء المعجمة بالحاء المهملة قريب . وإنما رجحت هذا الوجه ؛ لاشتهاره فى سائر الكتب كما ذكرت آنفاً . ويجوز أن يكون الصواب أحد الوجهين الآخرين ، إلا أن مثل هذا لا يثبت إلا بنص ، ولم أقف على نص فيه . والخطب أسهل من أن نطيل فيه الكلام ؛ لأن الظاهر من مفاد القصة أن الكلمة مخترعة . والله اعلم .

obeikandl.com

فصل فى بقية أخباره

لما دخل أبو العلاء بغداد أقبل عليه علماؤها وأدباؤها ، معجبين بفطنته ، وسعة علمه . وأختص بصحبته جماعة منهم ، كأبى القاسم على بن المحسن القاضى التنوخى ، وكخازن دار العلم ، والشريفين الرضى والمرتضى ابنى أبى أحمد الموسوى ، وغيرهم . وكان المرتضى شديد الاختصاص به ، وله معه مباحثات ومداعبات . روى أنه حضر مجلسه يوماً ، وجرى ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه ؛ لبغضه له ، وتعصبه عليه .

كان أبو العلاء على عكسه يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ومَنْ دونه ؛ كأبى نواس وأبى تمام . فقال : لو لم يكن للمتنبى إلا قوله : (لك يامنازل فى القلوب منازل) لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر به فأخرج من مجلسه ، ثم التفتَ إلى من بحضرته ، وقال لهم : أتدرون أى شىء اراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، مع أن لأبى الطيب ما هو أجود منها فقالوا : النقيب السيد أعرف ، فقال : أراد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

قلت : ومن التلميح المستندب بهذا البيت ما وقع للفتح بن خاقان مع ابن الصائغ ، وقد ذكره بسوء فى كتابه قلائد العقيان ، فمر عليه ابن الصائغ يوماً وهو فى جماعة ، فضرب بيده على كتفه ، وقال : إنها شهادة يافتح . ثم مضى فى سبيله ، فتغير لون الفتح ، وقال : والله مابلغت بوصفى له فى كتابى عُشْرَ ما بلغ بى بهذه الكلمة !

ويشبه قصة المعرى مع المرتضى ما وقع للخالديين مع سيف الدولة ، لما عاتباه فى تفضيله للمتنبى ، وقالا : ليختر الأمير ماشاء من قصائده ، حتى ننظم ما هو

أجود منها ، فاقترح عليهما أن يعارضا قوله :

لِعَيْنَيْكَ ما يلقى الفؤاد وما لَقِى وللحب ما لم يَبْقَ منّى وما بقى

فلما كررا النظر فيها لم يجداها من غرر قصائده ، ثم فطنا إلى أن سيف الدولة أراد بهما قوله فيها :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

فأحجما عن المعارضة ولم يعاوداه . وفى رواية أن هذه القصة وقعت للسرى الزفاء لا الخالديين . وحكى بعضهم ، قال : خرجت على سبيل الفرجة ، فعقدت على الجسر ببغداد ، فأقبلت أمرأة من جانب الرصافة تريد الجانب الغربىّ ، فاستقبلها شاب فقال لها : رحم الله على بن الجهم ، فقالت فى الحال : ورحم الله أبا العلاء المعرّى . ولم يقفا ، ومرا مشرّقاً ومغرّبة ، فتتبعت المرأة وقلت لها : أخبرينى عافاك الله عما قال لك ، وعمّا أجبت به فقالت : نعم ، رحم الله على بن الجهم ، أراد قوله :

عيون المها بين الرُّصَافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أردى

وأردت بترحمى على أبى العلاء قوله :

فيادارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

ورُوِىَ أن أحد الشرفاء سقط منه خاتم فى الحرم ، فقال له أحد بنى عمه : لمَ لمْ تقف على طلب الخاتم الثمين ؟ فقال له : ألست من أبناء أمير المؤمنين ؟ أراد الأوّل قول المتنبى :

بَليت بِلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

وأراد الثانى قوله من قصيدة اخرى :

كذا الفـاطميون الندى فى اكفهم اعزالمحاء من خطوط الرواجب[1]

(١) الرواجب : واحدتها راجبة ، وهى مفاصل الأصابع .

يريد : أن الندى ملازم لأكفّهم ، كما أن خطوط الرواجب ملازمة لها .

وفى البيت الأول نادرة لأبى العلاء ، وذلك أنه بلغ من ولوعة بالمتنبّى أنه كان إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى ، قال أبو تمام ، فإذا أراد المتنبّى قال : قال الشاعر . فقيل له يوماً : لقد أسرفت فى وصفه ، فقال : أليس هو القائل :

بليتُ بِلىَ الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

كم يقف الشحيح على خاتمه ؟ يقف عليه أربعين يوماً . فقيل له : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوماً ، فقيل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى :

وَهَبْ لِى مُلْكا لا ينبغى لأحدٍ من بعدى ، وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه !

ولما بلغ أبا العلاء وفاة أبى أحمد الظاهر أبى الشريفين الرضى والمرتضى سنة ٤٠٣ ، رثاه وهو بالمعرّة بقصيدة فائية طويلة ، أجاد فيها كلّ الإجادة ، وأنفذها إليهما . مطلعها :

أوْدَى فليت الحادثاتِ كفافِ مالُ المُسيفِ وعَنْبَرُ المُستَافِ

ومن غريب قوله فيها يخاطب الغرابَ :

لا خاب سَعْيُكَ من خُفَافِ أسحمٍ كُسَحَيْمِ الأَسَدِى أو كخُفَافِ

من شاعرٍ للبين قال قصيدة يرثى الشريف علىَ رويِّ القافِ

بنيت على الإبطاء سالمة من الإقواء والإكفاء والإصراف

الخُفَاف : الخفيف ، وسُحَيْم : عبد بنى الحَسحاس ، كان أسود ؛ وأراد

بِخُفَاف : خُفَاف بن نُدْبَة[1] أحد غربان العرب وشعرائها ، يعني كأن هذا الغراب شاعر أسود كهذين الشاعرين ، يدعى لنا الشريف بنعيبه ، ويرثيه بقصيدة قافيّة ؛ لأنه يقول فى نعيبه :

غاقِ غاقِ . وهذه القصيدة بنيت على الإبطاء ؛ لأنه يردد هذه الكلمة فى قوافيها ، إلا أنها سالمة من الإقواء ، وهو الاختلاف بين القوافى بالرفع والجر ؛ ومن الإكفاء ، وهو المخالفة بينها بالحروف ؛ ومن الإصراف ، وهو الإقواء بالنصب .

وممن صحب أبا العلاء وأخذ عنه وهو ببغداد القاضى أبو القاسم على ابن المحسّن التنوخى المتقدّم ذكره ، وكانت بينهما رابطة اتحاد . وحمل إليه مرّة جزءًا من أشعار تنوخ فى الجاهلية ، مما كان جمعه والده أبو على المحسّن ، فلما تعجّل أبو العلاء الرحيل عن بغداد تركه عند أبى أحمد عبد السلام ، وسأله رده إلى أبى القاسم ، وسار عن بغداد ، فخشى أن يكون أغفله ، فكتب يخاطب أبا القاسم بقصيدة ضمنها أغراضاً ، يقول فيها :

أهدى السلام إلى عبد السلام فما ... يزال قلبى إليه الدهر ملفوتا
سألته قبل يوم السير مَبْعَثَه ... إليك ديوان تيم اللات ماليتا[2]
هـذا التعلم أنى ما نهضت إلى ... قضاء حجّ فأغفلت المواقيتا

وروى ابن خَلِّكان وابن الوردى فى تاريخيهما ، نقلا عن كتاب للحافظ أبى طاهر السِّلَفى ، وضعه فى أخبار أبى العلاء . قال فيه مسنداً عن القاضى أبى الطيّب الطبرى ، كتبت إلى أبى العلاء المعرى حين وافى بغداد ، وقد كان نزل فى سُوَيْقة غالب :

---

(١) ندبة بفتح أوله أو ضمه : أم خفاف ، وهو أحد من نسب إلى أمه من الشعراء .
(٢) ماليتا : أى ما نقص .

وما ذات درٍّ لا يحلُّ لحالب ... تناوَلهُ واللحمُ منهـا مُحلَّلُ
لمن شاء فى الحالين حيًّا ومَيِّتًا ... ومن رام شرب الدَّرِّ فهو مُضلَّلُ
إذا طعنت فى السنّ فاللحم طيب ... وآكلُهُ عند الجميعِ مُعقَّلُ
وخرفانها للأكل فيها كزازة[1] ... فما لحصيف الرأى فيهنّ ما كَلُ
وما يجتنى معناه إلا مبرِّز ... عليم بأسرار القلوبِ مُحَصَّلُ

فأجابنى ، وأملى على الرسول فى الحال :

جوابان عن هذا السؤال كلاهما ... صوابٌ وبعض القائلين مضلَّلُ
فمن ظنّه كرماً فليس بكاذبٍ ... ومن ظنّه نخلاً فليس يُجهَّلُ
لحومهما الأعناب والرُّطَبُ الذى ... هو الحلُّ والدُّرُّ الرحيق المُسَلسَلُ
كأن ثمار النخل وهى غضيضة[2] ... ثمرٌ[3] وغضُّ الكَرْم يُجنى ويُؤكلُ
يكلفنى القاضى الجليلُ مسائلاً ... هى النَّجم قدراً بل أعزُّ وأطولُ
ولو لم أُجِبْ عنها لكنت بجهلها ... جديراً ولكن من يَودُّكَ مُقبِلُ

قال القاضى أبو الطيب ، فأجبته عنه وقلت :

أثار ضميرى من يعزّ نظيرِه ... من الناس طرًّا سابغ[4] الفضل مكمَلُ
ومن قلبُهُ كُتْبُ العلوم بأسرها ... وخاطره فى حدَّةِ النار مُشْعَلُ
تساوى له سرُّ المعانى وجهرها ... ومُمْضِلُهَا بادٍ لَدَيْهِ مُفَصَّلُ
ولما أثار الحُبَّ قاد[5] منيعه ... أسيراً بأنواع البيان يُكَبَّلُ

---

(١) الكزازة : البيس والانقباض
(٢) رواية بن الوردى : رطبة .
(٣) مريمر — بالفتح والضم: ضد يحلو .
(٤) رواية بن الوردى ، سابق
(٥) رواية ابن الوردى : ولما أثار الحب فار معينه .

وقرّبه من كلّ فهم بكشفه ... وإيضـــاحه حتى رآه المفضّلُ
وأعجب منه نظمه الدُّرَّ مسرعاً ... ومرتجلاً من غير ما يتمهّلُ
فيَخْرُجُ من بحر ويسمو مكانه ... جلالاً إلى حيث الكواكب تنزلُ
فهنّأه اللهُ الكريمُ بفضـــله ... محاسنَه والعُمْرُ فيهـا مُطوَّلُ

فأملى أبو العلاء على الرسول، مرتجلاً :

ألا أيها القاضى الذى بدهائه ... سيوف على أهل الخلاف تُسَلُّ
فؤادك معمور من العلم آهلٌ ... وجَدُّكَ فى كل المسائلِ مُقْبِلُ
فإن كنتَ بين الناس غير ممولِ ... فأنت من الفهم المصون ممولُ
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلاً ... فأنت وهم مثل الحمائم أجْدَلُ
كأنك من فى الشافعى مخاطبٌ ... ومن قلبه تُمْلِى فما تتمهّلُ
وكيف يُرَى علم ابن أدريس دارساً ... وأنت بإيضاح الهدى مُتكفّلُ
تفضلت حتى ضاق ذَرْعى بشكر ما ... فعلتَ، وكفى عن جوابك أجملُ
لأنك فى كنه الثريّا فصاحةً ... وأعْلى، ومن يبغى مكانك أسْفَلُ
فعُذْرِىَ فى أنى أجبْتُك واثقاً ... بفضلكَ والإنسان يسهو ويذهَلُ
وأخطات فى إنقاذ رقعتك التى ... هى المجدُ لى منها أخيرٌ وأوّلُ
ولكن عدانى أن أروم احتفاظها ... رسولك وهو الفاضل المتفضّلُ
ومن حقها أن يصبح المسك عاطراً ... بها[1] وهى فى أعلى المواضع تُجْعَلُ
فمن كان فى أشعاره متمثّلاً ... فأنتَ امرؤٌ فى العلم والشعر أمثَلُ
تجملتِ الدنيا بأنك فوقهـا ... ومثلُكَ حقًّا مَنْ به تتجمّلُ

---

(١) رواية ابن الوردى : غامراً لها .

والقاضى أبو الطيب المذكور كان أديباً وَرِعاً ، عارفاً بأصول الفقه وفروعه صنف فى الأصول ومذهب الشافعى والخلاف والجدل — كتباً كثيرة : وكان يقول الشعر على طريقة الفقهاء ، وولىَ القضاء بربع الكرخ ببغداد ، ولم يزل عليه إلى أن مات سنة خمسين وأربعمائة ، بعدماعاش مائة سنة وسنتين لم يختل عقله ، ولا تغيَّر فهمه ، يفتى ويستدرك على الفقهاء الخطأ ، ويقضى ويحضر الموا كب فى دار الخلافة . رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أبى العلاء قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس — صاحب حلب ، وقبوله شفاعته فى أهل معرة النعمان بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ . والسبب فى ذلك أن امرأة صاحت يوم الجمعة بجامع المعرّة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد اغتصابها ، فنفر كل من فى الجامع وهدموا الماخور . وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان الأمير أسد الدولة فى نواحي صيدا ، فوصل المعرّة ، وخيّم بظاهرها ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا برأى وزيره تادرس ابن الحسن الأستاذ ، وأوهمه أن فى ذلك إقامة للهيبة ، فشق على المسلمين كهذا الأمر ؛ حتى دعوا لهؤلاء المعتقلين على منابر آمير ومَيَّارِفينَ . وقطع تادرس عليهم ألف دينار ، ففزع أهل المعرّة إلى أبى العـــلاء ، وسألوه تلافى الأمر بالخروج إلى الأمير ، والتوسط لهم عنده . فخرج من أحد أبواب المدينة ، ويده فى يد قائده ، وأبصره صالح ، فرأى شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء جيئونى به . فلما مثل بين يديه سلَّم عليه ، ثم قال : « الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع ، قاظ وسطه وطاب إيراده ، أو كالسيف القاطع ، لان متنه وخشن حدّاه ، « خذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين » . فقال صالح : لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ ، قد وهبت لكَ المَعَرَّة وأهلَهـا » وأمر بتقويض الخيام ورحل . فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نَجَّى المعرَّةَ من بَرَائنِ صالحٍ ربٌّ يعافى كلَّ داءٍ معضلِ
ما كان لى فيها جناح بعوضةٍ الله ألحقهم جناح تفضلِ

ورواية اللزوميات فى البيت الأول :

نجَّى المعاشر من برائن صالح ربٌّ يُفرِّجُ كلَّ أمرٍ مُعْضلِ

وفيها أيضاً : ألبسهم ، بدل ألحقهم . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، وإلاّ كان قد سأل فيه أيضاً .

وفى هذه القصة يقول وضمنها لزومياته :

تَغَيَّبْتُ فى منزل برهـــةً ستيرَ العيوب فقيد الحَسَدْ
فلما مضى العُمرُ إلا الأقَلُّ وحُمَّ لروحى فِرَاقُ الجَسَدْ
بُعِثْتُ شفيعاً إلى صـــالحٍ وذاك من القوم رأى فَسَدْ
فيسمع مِنِّى سجعَ الحمامِ واسمع منه زَئيرَ الأَسَدْ
فلا يُعْجِبَنِّى هذا النِّفَاقُ فكم نَفَقَتْ محْنَةٌ ما كَسَدْ

وصالح هذا هو أسد الدولة أبو صالح بن مرداس الكِلابى أول ملوك بنى مرداس بحلب ، كان من عرب البادية ، وكانت له عشيرة وشوكة ، فقصد مدينة حلب وانتزعها من مرتضى الدولة بن لؤلؤ ، نائب الظاهر بن الحاكم الفاطمى خليفة مصر ، وتملكها سنة ٤١٧ . ثم جهز الظاهر الجيوش ووجهها إليه ، وجرت مقتلة انجلت عن قتل صالح سنة ٤٢٠ وقيل سنة ٤١٩ .

وهو الذى عناه أبو العلاء بقوله فى لزومياته :

أرى حلَباً حازها صـــالح وجال سِنَانٌ على جِلقَا
وحَسَّانُ فى سَلَفَىْ طَيِّئٍ يصرف من عِزِّهِ أَبْلَقَا

وذكر السيوطى فى بغية الوعاة فى ترجمة نصر بن صدقة القابسى النحوى أنه كان ممن يعانى الأدب ، فقدم مصر وأخذ من علمائها ، ثم توجه إلى المعرّة فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة ، ورجع إلى مصر ، فقدمها للحاكم وقرأها عليه ، فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب ، أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكف عنه . هـذا ما ذكره السيوطى . وفى مقدمة رسالة للمعرى تسمى بالفلاّحية : أن القابسى المذكور لما رجع إلى مصر بنسخته سقط الزند ، أهداها للوزير أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى ، فأعجب بهـا ، واستدعى كاتب الديوان ، وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولى حلب وأعمالها فى حمل أبى العلاء إلى مصر ، ليبنى له دار علم ، وسمح بخراج معرّة النعمان له فى حياته وبعده ، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل ، فكتب ، وجهز على البريد . فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت ، حتى دخل معرّة النعمان ، وقرأ السجل على أبى العلاء فقال : أمهلنى حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة ، فلعل المقر يسامحنى بالمقام فى بلدى ؛ إذ لا يمكننى الخروج منه فأمهله الأمير ، فأحضر الكاتب للوقت ، وأملى عليه هذه الرسالة يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعجزه عنه . والوزير الفلاحى المذكور وُزِرَ للمستنصر سنة ٤٣٦ وعزل سنة ٤٣٩ . ولم تسبق له وزارة مدة الحاكم بأمر الله ، حتى يمكن الجمع بين الروايتين .

وقد تقدم أن المستنصر بذل لأبى العلاء ما يبيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبله . فلعل ذلك كان بسعى هذا الوزير ، وفيه ما يرجح الرواية الثانية . إلا أن يكون مراد السيوطى مطلق حاكم بمصر ، لا الحاكم بأمر الله على الخصوص . وكان هذا الوزير فى أوّل أمره يهودياً ، ثم أسلم . وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرى :

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومدّ يدٍ نحو العلا بتكلف
فلو كان هذا من وراء كفاية عذرنا ولكن من وراء تخلف

وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدبر الدولة له فقال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملكُ
يا أهل مصر إنى نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلكُ

وممن ارتبط مع أبى العلاء برابطة الود ، وجمعته به آصرة الأدب ؛ الوزير أبو القاسم الحسين بن علىّ العالم الأديب المشهور بالوزير المغربى ، صاحب مختصر إصلاح المنطق ، وأدب الخواص ، والمأثور فى ملح الخدور ، وكتاب الإيناس ، والديوان الشعر . وهو الذى كتب له أبو العلاء رسالته المسماة بالمنيح ، ورسائل أخرى . ولما فرغ من تأليف مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت أنفذ إلى أبى العلاء نسخة منه ، فقرظها برسالة طويلة سماها بالإغريضيّة ، أثنى عليه فيها ثناءً جمًّا ، ووصف المختصر ، وبالغ فى مدحه . ووقفت فى رسائل لأبى العلاء مخطوطة على كتاب أرسله له هذا الوزير ، يتشوّق إليه وإلى أخيه ، ويشتكى من الدهر وصروفه ، ويسأل الله أن يجمعه بهما وضمّنه كثيراً من شعره فى هذه الأغراض . ولولا خوف الإطالة لأثبته هنا .

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين ، محبًّا للفتن ، مثيراً للقلائل ، قتل الحاكم بأمر الله أباه وعمّه وأخويه . فهرب إلى الرملة ، ثم انتقل إلى الحجاز ، وهو يفسد نيات الولاة على الحاكم حتى أقلقه . ودخل العراق فاتهمه القادر العباسى بالسعى فى إفساد الدولة العباسية ، فلم يزل متنقلا فى البلاد حتى

مات بِمَيَّافَارِقِينَ سنة ٤١٨ على الأصح . ونقل إلى الكوفة بوصية منه ، ودفن في تربة مجاورة لمشهد الإمام كرم الله وجهه وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت فى سَفْرةِ الغَوَاية والجهـ ... ـل مقيما فحان منى قدوم
تبت من كل مأثم فعسى يُمْـ ... ـحَى بهذا الحديث ذاك القديم
بعد خمس وأربعين لَقَدْ ما ... طلتُ إلاّ أنّ الغريم كريم

ورثاه أبو العلاء بأبيات أثبتها فى لزوميّاته ، وهى :

ليس يبقى الضَّرْبُ[1] الطويل على الأ ... رض ولاذوا لَعبالة[2] الذّرْحايهْ
يا أبا القاسم الوزير ترحّلْـ ... ـت وخلّفتنى ثِفَال[3] رُحَايهْ
وتركت الكتب الثمينة للنا ... س وما رحت عنهمُ بِسِحَايه[4]
ليتنى كنتُ قبل أن تشرب المو ... تَ أصيلاً شربتُه بضُحَايهْ
إن نحتْكَ المنونُ قبلى ، فإنى ... مُنْتَحَاها وإنها مُنْتَحَايهْ
أمُّ دَفْرٍ تقول بعدك للذا ... ئق لا طعم لى فأين فَحَايه[5]
إن يحُطَّ الذنب اليسير حفيظا ... كَ فكم من فضيلة مَحَّايهْ

وكان ابن القارح صاحب الرسالة المشهورة للمعرّى يؤدب الوزير المغربىّ فى صباه ، ثمّ صار يذمّه ويعدّد معايبه ، حتى قال فى هجوه :

لُقِبْتُ بالكامل سَتْراً على ... نقصك كالبانى على الخُصّ

---

(١) الضرب : الخفيف اللحم .
(٢) ذو العبالة : الغليظ ، والدرحاية : القصير .
(٣) الثفال بالكسر . الجلد الذى وضع تحت الرحى .
(٤) سحاية القرطاس : ماسحى منه ، أى أخذ .
(٥) الفحا وبكسر : البزر : وفحى القدر : كثر أزره.

فصرت كالكُنْفِ إذا شيّدت ... بُيِّض أعلاهن بالجِصِّ
يا عُرَّةَ الدنيا بلا غُـرَّةٍ ... ويا طُوَيْسَ[1] الشؤم والحرصِ
قتلت أهليكَ وأنهبت بيـ ... ـت الله بالموصل تستعصى

وبلغ أبا العلاء كلامه فيه فامتعض وتألم . فلما كتب ابن القارح رسالته قال فيها فى هذا الخصوص مخاطبا أبا العلاء : « بلغنى عن مولاى الشيخ — أدام الله تأييده — أنه قال وقد ذُكِرْتُ له : أعرفه خبراً ، هو الذى هجا أبا القاسم الحسين بن على المغربى . فذلك منه أدام الله عزه رائع لى ، خوفاً أن يستشر طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه : وأنا أطلعه طِلْعَه ليعرف خَفْضه ورفعه ، وفُرَادَاه وجمعه » . ثمّ ساق بعد ذلك نوادر عن هذا الوزير فى تهوّره ومحبته للفتن ، ونقضه للعهود ، فأجابه أبو العلاء فى رسالة الغفران الذنب للحى أن يغفره له وهو ميت .

وكان أبو الخطاب محمد بن على بن محمد بن ابراهيم الجَبُلِى[2] شاعراً ، وكان بينه وبين أبى العلاء المعرّى مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته :

غير مجدٍ فى ملّتى واعتقادى ... نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ

ومات أبو الخطاب فى ذى القعدة سنة ٤٣٩ . كذا ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

---

(١) طويس : أول من غنى فى الاسلام يضرب به المثل فى الشؤم ؛ لأنه ولد ليله مات رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وبلغ يوم مات عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل على .

(٢) الجبلى : نسبة إلى جبل بفتح الجيم وتشديد الياء وضمها : بليدة بين النعمانية وواسط ، كما فى ياقوت .

شعر أبى العلاء

فصل فى للكرر فى معانيه

فصل فى سرقاته

فصل فى مآخذ الشعراء من شعره

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره .

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل في المكرر فى معانيه

تكرير المعانى وقع لكثير من الشعراء ، ولم نر أحداً عابهم به ، إلاّ إذا كان المعنى فى نفسه ساقطاً مرذولاً ، يؤاخذ الشاعر عليه ، فتكون مؤاخذته على تكريره وترديده أولى . ومن الشعراء من يكرر الألفاظ فيعمد إلى بيت أو شطر بيت سبق له ، فيعيده فى قصيدة أخرى ؛ إما بتغيير قافيته ، أو يجعل الصدر عجزاً ، أو بالعكس . وهذا النوع يسميه أصحاب البديع بالتفصيل ، فإذا كان مأخوذاً من شعر الغير سمّوه : إيداعاً ، أو تضميناً ، على اختلاف بينهم فيه . ولم نقصد هنا التكلم عليه ، بل اقتصرنا على ما كرّره أبو العلاء من معانيه .

فمنها قوله فى تشبيه مسامير حلق الدُّروع بعيون الجراد :

سليميّةٌ من كلّ قَتْرٍ يحوطها ... قَتِيرٌ نبَتْ عنه الغوانى العوانسُ

تُخيِّلُ أبصار الدّبى فمسهّدٌ ... ومُغْفٍ وشىء بين ذينك ناعِسُ

كرره فقال :

كأن الدّبى غرقى بها غير أعين ... إذا رُدَّ فيها ناظر يستبينها

وكرّره فقال :

كأثواب الأراقم مزّقتْهـا ... فخاطتها بأعينهـا الجرادُ

وكرّره أيضاً فقال :

بدلاص كأنهـا ... بعض ماء الثمـاد

حَلَقُ الأيم خُيِّطت ... بعيون الجـراد

وكرّره فقال :

أتأكل درعي أنْ حسبت قتيرها وقد أجدبت قيس عيونَ جراد

* * *

وقوله فى تشبيه الدرع بالمبرد :

وما بُرْدَةٌ فى طيّها مثل مبرد بعاجزة عن ضمّ شخص وأوصال

كرّره فقال :

مُضَاعَةٌ فى نشرها نِهْيُ مُبْرِدٍ ولكنّها فى الطيّ تحسَبُ مِبْرَدَا

* * *

وقوله :

ذكى القلب يخضبها نجيعاً بما جعل الحرير لها جِلالا

كرّره وبالغ فيه فقال :

غذاهنّ محمرّ النجيع قوارحاً كأنّ يُغَذَّيْنَ الضريب مهارا

وقوله فى تشبيه فرند السيف بآثار دبيب النمل :

ودبّت فوقه حمر المنايا ولكن بعد ما مسخت نمالا

كرّره فقال :

كأن المنايا جيش ذرّ عرمرم تخذن إلى الأرواح فيه مسارا

وكرّره أيضاً فقال :

ما كنت أحسب جفناً قبل مسكنه فى الجفن يطوى على نارٍ ولا نهر

ولا ظننت صغار النمل يمكنها مَشْى على اللُّجّ أو سعْىٌ على السُّعُرِ (١)

(١) السعر : جمع سعير .

وقوله فى تشبيه طعم الماء بالمدام :

وملثمٍ بالغَالَقِ الجَعْدِ عرّست ... عليه فلم تكشف خفيٌّ لثامه

وكرّره فقال :

ولم أوردتها عِدًّا قديمـــاً ... يلوحُ عليه من خَزٍّ خمَارُ

وقوله :

فالنفس تبغى الحياة جاهدة ... وفى يمين المليك مِقْوَدُها

فلا اقتحام الشجاع مهلكها ... ولا توقّى الجبان مُخْلِدُها

كرّره فقال :

فكن فى كلِّ نائبة جريئاً ... تُصِبْ فى الرأى إن خَطِىء الهِدَانُ[1]

وسائلَ من تنطّس فى التوقّى ... لأية عـــلة مات الجبانُ

* * *

وقوله :

تمتّع أبكار الزمان بأيْدِه ... وجئنا بوهنٍ بعد ماخَرِفَ الدهر

كرّر فقال :

كأنّما الخير ماء كان واردَه ... أهل العصور فما أبقوا سوى الفكر

وقوله :

وكلٌّ يريد العيشَ والعيش حتفه ... ويستعذب اللذات وهى سِمَامُ

كرّره فقال :

تود البقاء النفسُ من خيفة الرَّدَى ... وطول بقاء المرء سُمٌّ مجرّبُ

---

(١) الهدان : الضعيف الجبان

وقوله :

واقتهم فى اختلاف من زمانكم ... والبدر فى الوَهْنِ مثل البدر فى السَّمَرِ

كرّره فقال :

وما البدر إلا واحد غير أنّه ... يغيب ويأتى بالضياء المجدَّدِ

فلا تحسب الأقمار خلقاً كثيرة ... فجملتها من نيِّرٍ مُتَرَدِّدِ

* * *

وقوله فى رثاء أمه :

مضت وقد اكتهلت فخلت أنّى ... رضيع ما بلغتُ مدى الفِطام

وكرّره فى رثائها فقال :

دعا الله أمّا ليت أنّى أمامَها ... دُعيتُ ولو أنّ الهواجر آصالُ

مضت وكأنى مُرْضَعٌ وقد ارتقت ... بىَ السِّنُّ حتى شكل فوْدِىَّ أشْكالُ

فصـــل في سرقاته

هذا باب لم أقف عليه مجموعاً ، فيسهل علىّ تناوله ، واستيفاء الكلام فيه ؛ وإنما أذكر منه ما اتفق لى العثور عليه فى كتب الأدب عند كتابة هذه النبذة ، واستخرجه الخاطر الكليل أثناء مطالعة ديوانه . وأبدأ بمآخذه من أبى تمام والبحترى وأبى الطيب المتنبّى ، ثم أذكر مآخذه من غيرهم من غير ترتيب .

فمن ذلك قول أبى تمام :

والحظّ يُعطاهُ غيرُ طالبه ... ويُحرِزُ الدرّ غيرُ مجتلبه

تلك بنات الخاض راتعة ... والعودُ فى كورهِ وفى قتَبِه

أخذه أبو العلاء وأخرجه فى بيت واحد فقال :

هُوَ الحَظُّ غَيْرُ الوَحْشِ يستافُ أنفُهُ ... خُزَامَى ، وأنفُ العَوْدِ بالعود يُخْزَم

* * *

وقال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنّها وكأنّهم أحـــلامُ

أخذه أبو العلاء وزاد عليه ، فقال :

فأضْحَوْا حديثاً كالمنام وما انقضى ... فسيان منه يقظةٌ ومنـــامُ

* * *

وقال أبو عبادة البحترى :

أخجلتنى بندى يديك فسوّدت ... ما بيننا تلك اليـد البيضاء

وقطعتنى بالوصل حتّى إننى ... متخوّف ألاّ يكون لقـاء

أخذهما أبو العلاء وضمن معناهما فى صدر بيته ، فقال وأجاد :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط فى الخَصَرِ

وهذا البيت من معجزاته ، إلاّ أنّه أورده فى غزل القصيدة ، وكان مديحها أولى به.

* * *

وقال البحترى :

نشوان يطرب للسؤال كأنّما غنّاه مالك طَيِّىء أو مَعْبَدُ

أخذَه أبو العلاء وزاد فيه زيادة لا تخفى على الأديب ، فقال :

فما ناح قمرىٌّ ولا هبَّ عاصفٌ من الريح إلاّ خالهُ صوتَ سائل

والبحترى جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل ، طرب المنتشى من المغنّى المجيد ، وأبو العلاء جعله كلما سمع صوتاً من تطريب حمام ، أو إزعاج أرواح ، خاله صوت سائل ، لمزيد اعتنائه بالسؤال وولعه بالنوال .

* * *

وقال أبو الطيب المتنبى فى وصف فرس :

وأصرع أىَّ الوحش قفّيتُه به وأنزل عنه مثلَه حين أركب

أخذه أبو العلاء فقال :

أصيـــل الجَدّ سابقُهُ تراه على الأَيْنِ المكرّر مستريحا

* * *

وقال أبو الطيِّب :

يقولون تأثير الكواكب فى الورى فما باله تأثيره فى الكواكب

أخذه أبو العلاء ، فقال :

من قال إنّ النّيّرات عواملٌ ... فَبِضِدِّ ذَلكَ فى عُلاكِ يقول

يعملن فيما دونهنّ بزعمه ... وَلَهُنّ دُونَك مطلَع وأفُولُ

قال شارحه أبو يعقوب النحوىّ : وقول أبى العلاء أرفع ، لأنّه جعل للممدوح فوق النجوم . انتهى .

وأقول أنا : إنّ أبا العلاء إنّما شرح المعنى ووضّحه ، فبيّن أنّ علّة عدم تأثير الكواكب فى ممدوحه علوّه عنها ، وهذا مستفاد من قول المتنبّى :

* فما باله تأثيره فى الكواكب *

لأن المؤثِّر فى العادة أعلى وأقوى من المؤثَّر فيه ، ففيه معنى بيتى المعرّى وزيادة .

* * *

وقال أبو الطيّب :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نَعَافُ مَا لَا بُدّ من شُرْبِهِ

أخذه أبو العلاء فقال :

ما رَغْبة الحىّ بأبنائِه ... عمّا جنى الموت على جدِّهِ

* * *

وقال أبو الطيب :

وأنا الذى اجتلب المنيّةُ طرفُهُ ... فَمَن المطالبُ والقتيلُ القاتلُ

أخذه أبو العلاء فقال :

وآفةُ العاشقِ فى طَرْفِهِ ... وآفةُ الصّارِمِ مِنْ حَدِّهِ

وكلا البيتَيْن فيه زيادة عن الآخر لا تخفى .

* * *

وقال أبو الطيب :

تمرُّ بكَ الأبطال كلْمَى هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ وثغرُكَ باسِمُ

أخذه أبو العلاء ، فقال :

يتهلّلُون طـلاقةً وكلومُهم بنهلٌ منهُنَّ النجيعُ الأحمرُ

وبيته أبلغ فى المدح ، لأنّ غاية المتنبّى أنّ وصف ممدوحه بتهلّله عند هزيمة جيشه ، احتقاراً للأخطار . والمعرّى جعل ممدوحيه يتهلّلُون وهم مصابون يقطر منهم الدم .

وقال أبو الطيّب

يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبِّهِ
وربّما زاد على عمـــــره وزاد فى الأمنِ على سربهِ

أخذه أبو العلاء فقال :

رددتُ إلى مَليك الخلق أمْرِى فلم أسألْ متى يقع الكسُوفُ
فَكَمْ سَلِمَ الجهُولُ من المنايا وعُوجلَ بالحِمام الفَيْلَسُوفُ

وقال أبو الطيّب :

فى رتبةٍ حَجَبَ الورى عن نيلها وَعَلا فسمَّوْهُ عَلِىَّ الحاجبا

أخذه أبو العلاء فقال :

وقد سمّاه سيِّدُهُ عَلِيًّا وذلك من عُلُوِّ القدرِ قالُ

وفى بيت المتنبّى زيادة ساعد عليها لقب ممدوحه .

* * *

وقال أبو الطيب أيضاً :

أتى الزمان بنوهُ فى شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهَرَم

أخذه أبو العلاء فقال :

تمتع أبكار الزمان بأيْدِهِ[1] وجئنا بوهن بعد ماخَرِفَ الدهر

* * *

وقد يَتقَارَبُ الوصفان جدًّا وموصُوفاهُما متباعـــدان

أخذه أبو العلاء ، فقال :

قد يَبعُدُ الشّىء من شىء يشابهُهُ إن السماء نظير المـاء فى الزّرق

وقال أبو الطّيّب :

وإذا خَفِيتُ عن الغبىّ فعاذرٌ أن لا تَرانى مقلةٌ عميـــاء

أخذه أبو العلاء فقال :

وكم عَيْنٍ تؤمِّلُ أن تَرَانى وتفقِدُ عند رؤْيتىَ السّوادا

يريد : إذا رأتنى خفيتُ عليها ، وكأنها عميت ، وفقدت سوادها

وقال عُمارة بن عقيل :

وما النفسُ إلاّ نطفةٌ[2] فى قرارة إذا لم تـكدّر كان صفواً غديرها

أخذه أبو العلاء فقال :

والخلّ كالماء يبدى لى ضمائره مع الصّفاء ويخفيها مع الـكدر

وقال النابغة الذبيانى فى النعمان :

فإنّك شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب

---

(١) الأيد : القوة (٢) النطفة ـ بالضم : الماء الصافى قل أو كثر

أخذه أبو العلاء ، فقال فى قصر نزلته عروس ممدوحه فخرج من كان فيه من حاشيته :

كان كالأفق حين همّت به الشَّمـــسُ تنادت نجومه بالمسير

* * *

وقال عَدِيُّ بن الرعلاء :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيْتٍ إنّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياء

ألَمّ به أبو العلاء فقال :

سالمُ أعـدائك مُستَسْلِمُ والعيش موت لهم مُرْغِمُ

* * *

وقالت ليلى أخت الوليد بن طريف ترثيه :

أيا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا كأنَّكَ لم تَجْزَعْ عَلَى ابن طَرِيفِ

أخذه أبو العلاء وتصرّف فيه فقال :

وما كنتُ أدرى أنّ مثلك يَشْتكى ولم يتغـيَّرْ للرِّياحِ نَسِيمُ

* * *

وقال عبيد بن الأبرص يصف السحاب :

كأنّ أقرابَهُ لما علا شَطَبًا[1] أقرابُ أبلقَ يبغى الخيلَ رمّاح

أخذه أبو العلاء فقال :

مَرَتْ لها ترمحُ أفلاءها فى الجـوِّ بُلْقٌ عَرَبِيات

ذكروا أنّهم يصفون السحاب بالبَلَق ، لما فيها من لَمْع البروق ، وهو

---

(١) الأقراب : جمع قرب بالضم أو بضمتين ، وهو : الخاصره . وشطب جبل معروف

قول حسن . والأقرب عندى أنهم يصفونها بذلك ، لأنّ فيها ما هو رقيق ، وما هو كثيف وما هو متقطّع . فيُخَيَّلُ لناظرِها أنّها بَلْقاء .

* * *

وقال الحطيئة :

يرى البُخْلَ لا يُبْقى على المرء مالَه ويعلم أنّ المرْء غيْرُ مُخَلَّدِ

أخذه أبو العلاء فقال :

إذا أوتيت مالاً فأبذلنه فما يُبقيه توفيرٌ وخَزْنُ

* * *

وقال الأفوه الأَوْدِى :

وقدور كالرُّبَى راكِدَةٌ وجِفَانٌ كالجَوَابى مُتْرَعَهْ

أغار عليه أبو العلاء فقال :

وقدورهم مثل الهِضَاب رواكداً وجفانهم كرحيبة الأَفْيافِ[1]

* * *

وقال كثير عزّة :

وكنت كذات الظّلْع لما تحامَلَتْ على ظَلْعِها بَعْدَ العِثار استقلّت

أخذه أبو العلاء فقال :

أودِّعُكم يا أهل بغدادَ والحشا على زفرات مأنَيِينَ من اللّدْع

وداع ضَنِ[2] لم يستقلّ وإنّما تحامَلَ من بعد العثار على ظَلْع

---

(١) الأفياف ، جمع فيف ، وهى البرية الواسعة .

(٢) ضنى كرضى ، فهو ضنى رضن : مرض

وقال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ

أخذه أبو العلاء ، وغلا بأن جعله قيداً للريح ، فقال :

وخيلاً لو جرت والريحَ شأواً ظَنَنَّا الرِّيحَ أوثقها إسارُ

* * *

وقال أبو فراس الحمدانى :

ونحن أناس لا توسّط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

أخذه أبو العلاء فقال :

وأصْبِحْ واحد الرجلين إمَّا مَليكاً فى المعاشر أو أبيلاً

* * *

وقال بديع الزمان الهمذانى :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق المحيّا يمطـر الذهبا

والدهر لولم يَخُنْ والشمس لو نطقت والليث لو لم يُصَد والبحر لو عذبا

أخذ أبو العلاء نصف شطر منه ، وقصر أى تقصير ، فقال :

إذا قيل بحر فهو ملح مكدّر وأنت نمير الجود عذب الشمائل

وقال أبو حيّة النميرى :

ولما أبت إلا التـواء بودّها وتـكديرها الشرب الذى كان صافيا

شربنا برنق[1] من هواها مكدّر وكيف يعاف الرَّنقَ من كان صاديا

والبيتان فى غاية الحسن ، إلاّ أنّ أبا العلاء ضمن معناهما فى بيت فقال :

---

(١) الرنق والرنق: الـكدر .

ولما أن تجهّمنى مُرادِى جَرَيتُ مع الزمان كما أرادا

* * *

وقال أبو الشيص :

أجد الملامة فى هواك لذيذةً طعماً لذكرك ، فليلمنى اللوّم

أخذه أبو العلاء فقال :

لم يبق غير العذل من أسبابهم فأحبّ من يدنو إلىّ عذولُ

وقال أبو الشمقمق فى حَرّاقةٍ[1] طاهر بن الحسين :

عَجِبتُ لحراقة بن الحُسَيْنِ كيف تعومُ ولا تَغْرَقُ

وبحران من تحتها واحدٌ وآخر من فوقها مطبقُ

وأعجب من ذاك عيدانها وقدْ مَسَّها كيف لا تورقُ

أخذ أبو العلاء البيت الثالث ، وزاد فيه بأن بين علة إبراق العود وأحسنُ التعليل فقال :

من كلّ من لولا تسمّر بأسه لاخْضَرّ فى يُمنَى يَدَيْه الأسْمَرُ

وقال آخر فى الحمام ، وينسب للمنازى :

شجى قلب الخلىّ فقيل غَنّى وبرّح بالشجىّ فقيل ناحا

قصر أبو العلاء فى أخذه فقال :

فقلت تغنّى كيف شئت فإنّما غَناؤُكِ عندى يا حمامة إعْوالُ

* * *

(٢) الحراقة : سفينة فيها مرامى نيران ، يرمى بها العدو .

وقالت وَلّادَةُ بنت المستكفى :

ترقّب إذا جنّ الظّلامُ زيارتى ... فإنّى رأيت الليلَ أكتَمَ للسرّ

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُح ... وبالبدر لم يَطْلُع وبالنجم لم يَسْرِ

وقال أبو العلاء :

منك الصدود ومنى بالصدود رضا ... من ذا علىّ بهذا فى هواك قضَى

بى منك مالو غدا بالشمس ماطلعت ... من الكآبة أو بالبرق ما ومَضَا

ولم أدر أيهما أخذ من الآخر ، لاجتماعهما فى عصر واحد . ولا يبعد أن يكون من التوارد ، إلاّ أنّ قول ولاّدة أبلغ !

أمّا قولُ أبى العلاء :

منى اليك مع الرياح تحيـــة ... مشفوعة ومع الوميض رسول

فلا يعد من السرقة فى شىء ، وإن سبقه غيره اليه ، لأن إرسال التحية مع التسليم أو البرق من المعانى الشائعة التى تداولتها الشعراء ، ولم تزل تتداولها . وإنما يظهر التفاضل بينهم فيها بحسن سبكها وإبرازها فى اللفظ المقبـــول ، والتلطّف فى تصويرها ، ولهذا تركت التنبيه عمّا وقع فى شعره منها ، كما أنّى لم أتعرض لما خفى ودقّ من سرقاته ، لئلاّ يمرّ ناظر عليه من غير تثبّت فينكره ، ويرميى بالخطأ أو التحامل .

واعلم أن ما ذكرناه عن المعرّى فى هذا الباب قلّما يخلو منه شاعر قديم أو حديث ، ولسنا بواصلين فيه إلى حدّ الجزم بأنّه تعمّد سرقته ، إذ قد يَعْرِضُ المعنى للشاعر فينظمه ولا يمرّ بخاطره وقت نظمه أنّه مسبوق به ، وربّما كان ممّا لم يقف عليه فى شعره غيره . وباب التوارد واسعٌ — كما وقع لطرفة ابن العبد وامرىء القيس فى قوله :

وقُوفاً بها صَحبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِك أسى وتَجَمَّلِ

فأتى به طرفة فى معلّقته مغيِّرًا لقافيته فقط ، فقال : (وتَجَلَّدِ) بدل : (وتجمّل) ، وثبت عند الرواة أنّه لم يطلع عليه قبل ذلك. وقال على بن منصور الحلبيّ المعروف بابن القارح[1] : « وكان محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً ، ويقول الشعر ، وعمل كتاباً فى سرقات المتنبيّ ، وحاف عليه كثيراً . وسألنى يوماً أن أخرج معه ، واستَصْحَبَ مغنياً وأمره ألاّ يغنى إلاّ بشعره ، ففنّى :

لو كان كل عليـــل يزداد مثلك حُسْناً
لكان كلّ صحيـح يودّ لو كان مُضْنَى
يا أكمل الناس حُسْناً صِلْ أكمل الناس حُزْناً
غنيت عنّى ومـالى وجهٌ به عنك أغْنَى

فقلت : أتثقل عليك المؤاخذة ؟ فقال : لا . فقلت : أبياتك مسروقة ، الأول من قول بعضهم :

فلو كان المريض يزيد حسناً كما تزداد أنت على السّقَامِ
لَمَا عِيدَ المريضُ إذًا وَعُدَّتْ شكايته من النِّعَمِ الجِسَامِ

والثانى من قول رؤبة :

مَسْلَمُ[2] لا أنْساكَ ما حَيِيتُ لو أشْرَبُ السُّلْوَانَ ما سَلِيتُ

* مالى غِنَى عنك ولو غَنِيتُ[3] *

---

(١) ابن القارح هذا هو الذى أرسل رسالته المشهورة لأبى العلاء المعرى ، فأجابه عليها برسالة الغفران

(٢) يخاطب مسلمة بن عبد الملك . مراعاة للفظ نظم الشعر كما جرى بذلك الشعراء .

(٣) رواية ديوان « رؤبة » (ما بى غنى عنك وإن غنيت)

فقال : والله ما سمعت بهذا ، فقلت : « إذا كان الأمر على هذا ، فاعذر المتنبي على مثله ، ولا تبادر إلى الحَطِّ عليه ، ولا المؤاخذة له ، والمعانى يستدعى بعضها بعضاً » . انتهى .

ولا بدّ لنا قبل ختم هذا الباب من ذكر نوع يعدّه كثيرون من السرقة وليس منها ، كقول « الطغرائى » :

وذى شَطَاطٍ كصدر الرُّمْح مُعتقل بِمثلِهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ

وقول الحريرى فى مقامته الرابعة والأربعين من قصيدة بائية :

وذا شَطَاطٍ كصدر الرُّمْحُ مُعْتَقَل صادفته بمنًى يشكو من الحَدَبِ

قال الصفدىّ : « ومثل هذا لا يعدُّ سرقة ، لأنّ المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه بفظيع[1] ، ولا الطغرائىُّ ، عاجزٌ عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه . ونسى أنّ هذا لغيره ، لعدم الاحتفال بأمره ، إذ هو ليس بأمر كبير ، وهذا — كثير الوقوع للناس ، لا يكاد يسلم الفحول منه . » انتهى كلامه .

وقال التنوخى فى زهر الربيع : « وممّا يعدّ سرقة وليس بها ، اشتراك اللفظ المتعارف كقول عنترة » :

وخَيْلٍ قَدْ دلفتُ لها بخيلٍ عليها الأسد تهتصر اهتصارَا

وقالت الخنساء :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيلٍ فدارت بين كبشيها رحاها .

انتهى

قلت : وتحقيق المقام أن الكلام المأخوذ يشترط فيه أن لا يكون ذا معنى

---

(١) أى . عظم

كبير أو لفظ بالغ حدًّا ما من الرشاقة ، فإذا أدمجهُ الشاعر فى بيته جاء به غير مقصود لذاته ، بل يجعله كالتوطئة لمعنى آخر مقصود له ، يبنى البيت عليه . ويظهر ذلك فيما — استشهد به الصفدىُّ والتَّنُوخى ، وهو كثير فى شعر العرب والمُحْدَثين ، وقد وقفتُ منه على جملة صالحة ، لو جمعت لجاءت رسالة لطيفة ، كقول الراعى النُّمَيْرى :

فتى يشترى حسن الثناء بمـــاله ... إذا ما اشترى الخزّاة بالمجد بيهس

وهو مثل قول الأُبيرد :

فتى يشترى حسن الثناء بمـاله ... إذا السَّنَةُ الشهباء[1] أعوزها القَطْرُ

وتبعهما « أبو نواس » فقال :

فتى يشترى حسن الثناء بمـــاله ... ويعلم أن الدائرات تدور

وقول « دريد بن الصِّمَّة » :

أمرتُهم أمرى بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلاّ ضُحى الغَد

وهو مثل قول « المتلمس » :

أمرتُهم أمرى بمنعرج اللوى ... ولا أمـــر للمعصىِّ إلاّ مُضَيَّعُ

وفى هذا القدر كفاية . والكلام فى السرقات الشعرية وأنواعها واستيعاب ما قيل فيها ، لا يتسع له مثل هذا المختصر . . ، فإذا مَنَّ اللهُ بتوفيقه ، وكان فى العمر مهلة ، وضَمَنّا فيها رسالة تستقلّ بجمع شتاتها ، وتفصيل ما أجمل منها .

ومن غريب ما وقفت عليه من ملاحظاتهم ، ما رواه على بن العباس

---

(١) السنة الشهباء : الكثيرة الثلج الجدبه ، والشهباء أمثل من البيضاء . والحمراء أشد من البيضاء . . وسنة غبراء : لامطر فيها

النوبختى » قال : قال لى « البحترى » : أتدرى من أين أخذ « الحسن »[1] قوله :

ولم أدرِ مَنْ هُمْ غير ما شهدت به بشرقىّ ساباط الدّيار البسابس

فقلت : لا ، فقال : من قول « أبى خراش » :

ولم أدر مَنْ ألقى عليه رداءهُ ولـكنّه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْضِ

فقلت : المعنى يختلف ، فقال : إنا نرى حذو الـكلام واحداً ، وإن اختلف المعنى . انتهى .

قلت : إذا كان مراد البحترىّ مجرّد البيان ، فقد لاحظ ملاحظة دقيقة ، وإذا كان قصده الحطّ من « أبى نواس » ، والنعى عليه ، فقد — لعمرى — ركب متن عشواء ، وتخبّط فى ظلماء ، فإن احتذاء كلام العرب مطلوب فى البلاغة ، وما حث العلماء على إكثار النظر فى أشعارها واستظهارها إلاّ توصّلاً إلى ذلك . . ولولا محاولته ما صبرنا على الغدائر المستشزرات والقنو المتعثكل ، بل لو لم يصقل البحترىّ شعره بتلك المسحة العربيّة ، ما كانت له الديباجة الغريبة التى انفرد بها بين معاصريه ، وبَزّ بها أهل طبقته . والله أعلم .

---

(١) الحسن = هو : « أبو نواس » .

فصل في مآخذ الشعراء من شعره

القول فى هذا الباب كالقول فى سابقه ، فلهذا نقتصر على ذكر ما حضر منه ، دون استيعاب سائره . فمنه قول أبى العلاء :

لا تطلبن بآلة لك رفعـــة قلم البليغ بغير حظٍّ مِفْزَلُ
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعْزَلُ

أخذه أبو إسحق الغزّى ، فقال :

والحسن والقبح قد تحويهما صفة شان البياض وزان الشيب والشنبا
ظُبَا المُخَارَفِ[1] أقلامٌ مكسَّرةٌ رؤوسهن ، وأقلام السعيد ظُبَا

* * *

وقال أبو العلاء يصف خيلاً :

ولما لم يسابقهـــنّ شيء من الحيوان سابقن الظلالا

أخذه ابن احمد يس فقال وأجاد :

ويكاد يخرج سرعة من ظِلِّهِ لو كان يرغبُ فى فراق رفيق

* * *

وقال أبو العلاء

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن المـاء فاشتاقت إليها المناهلُ

أخذه الطغرائى فقال :

ونفس بأعقاب الأمور بصيرة لَهَا من طِلاع الغيب حاد وقائد

---

(١) يقال : رجل مخارف بالمعجمة ومحارف بالمهملة وبفتح الراء فيهما أى محدود ممنوع

وتأنف أن يشفى الزلالُ غليلها إذا هى لم تشتق اليها الموارد

* * *

وقال أبو العلاء :

وما ازدهيْت وأثوابُ الصبا جُدُدٌ فكيف أزهى بثوب من صبا خَلَقِ

أخذه الطغرائى أيضاً فقال :

لم أرتض العيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد وَلَّتْ على عجل

* * *

وقال أبو العلاء

وافقتهم فى اختلاف من زمانكم والبدرُ فى الوَهْنِ مثل البدر فى السحر

أخذه الطغرائى فقال :

مجدى أخيراً ومجدى أوّلاً شَرَعٌ والشمس رأد الضُّحى كالشمس فى الطَّفَل

قال الصفدىّ : ولكن قول المعرّى ألطف عبارة ، وأحسن شارة وإشارة، لأن الطغرائى أغرب فى لفظىْ رَأَدَ والطَّفَل ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم فى البلاغة . انتهى . وقد ناقشه بدر الدين الدماميني — فى نزول الغيث » بما لا يخلو إيراده من فائدة ، ونص عبارته : أقول الإغْراب فى اللفظ هو الإتيان به غريباً ، وقد نصّ بعض الأئمة على أنّ الغرابة كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة الاستعمال ، فمنه ما يحتاج فى معرفته إلى أن ينقر ويبحث عنه فى كتب اللُّغة المبسوطة ، ثمّ الغريب منه حسن ، وهو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ؛ لأنّه لم يكن وحشيًّا عندهم ، مثل : اشْمَخَرَّ واقْمَطَرَّ ، ومنه قبيح يعاب استعماله مطلقاً ، ويسمّى الوحشىّ الغليظ ، وهو أن يكون مع كونه غريب الاستعمال ، ثقيلاً على السَّمْع ، كريهاً فى الذّوق ، ويسمّى المتوعِّر — أيضاً مثل : اطلخَمَّ الأمر . وعلى كلّ تقدير فلا نسلم أن

رأد والطفل من الغرابة فى شىء ، كما ادّعاهُ الصّفدىّ . وفى قوله : وعذوبة الألفاظ أمر مُبهمٌ فى البلاغة ، قرينة دالة على أنه أراد أن الرأد والطّفَل من الغريب المستكره فى الذوق ، المسمّى بالمتوعّر ، وظاهر أنّ ذلك خطأٌ نشأ من سوء الذوق ، وعـــدم المعرفة — بكلام القوم والإعراض عن التدبّر لاصطلاحهم » انتهى كلامه .

وقال أبو العلاء :

وأغدو ولو أنّ الصّباح صوارم وأسرى ولو أنّ الظلام جحافلُ

أخذه عفيف الدين التلمسانى فقال :

أسير ولو أنّ الصّباح مواكب وأسرى ولو أنّ الظّلام قتامُ

وقال أبو العلاء فى : « سيف » :

ودبّت فوقـه حُمـــر المنـايا ولـكن بعد ما مُسخت نمـالا

أخذه الوزير أبو محمد عبد الغفور فقال :

تريه المنـايا الحمر فيه وجوهها مماثلة الأرواح فى خلقة الذرّ

* * *

وقال أبو العلاء :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

أخذه التهامى فقال :

لم أخْنَ إلاّ للعـــلوّ وإنّما تخطى السُّها لعـــلوّه الأبصارُ

وقال أبو العلاء :

وفضل الشمس فى الأيام باق وان مدّت من الكبر اللُّعابا

أخذه ابن سناء الملك ، فقال من قصيدة يهجو بها الشمس :

أنتِ عجوز لمْ تبرّجتِ لى وقد بدا منك لعـاب يَسيلُ

* * *

وقال أبو العلاء :

خفِّف الوطء ما أظُنّ أديم الأ رض إلاّ من هذه الأجسادِ

أخذ مهيار الديلمى فقال :

رويدًا بأخفـاف المطىّ فإنّما تداس جباه فى الورى وخدود

* * *

وقال أبو العلاء فأجاد :

الموقدون بنجـــــدٍ نار بادية لا يَحْضُرُونَ وفقد العزّ فى الحَضرِ

إذا هوى القَطْرُ شبّتها عبيدهمُ تحت الغمائم للسارين بالقُطُرِ

أى : إذا أطفأ المطر نارهم شبّتها عبيدُهم بالقُطْر ، وهو العُود ليهتدى السارى برائحته . قال الصفدىّ : وعليه اعتمد ابن عباد فى قوله ، على أنّه ما فارق المعنى ، ولا خالف المعنى ، وهو :

المكثرين من الكِباء[1] بنارهم لا يوقدون بغـيره للسارى

* * *

وقال أبو العلاء :

سألن فقلت مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهنّ فالاَ

أخذه عصرّينا « سليم رحمى بك » رحمه الله — فقال فى : محمد شريف باشا وزير مصر :

---

(١) الكباء — ككساء : عود البخور ، أو ضرب منه

يقول القوم مطلبكم عزيز فقلت نعم ومقصدنا شريف

* * *

وقال أبو العلاء :

تحية كسرى فى السَناء وتُبَّعٍ لربعك لا أرضى تحية أرْبعِ

أخذه أحمد شوقى بك فقال فى مدح السلطان عبد الحميد :

سلام الله لا أرضى سلامى فكلُّ تحيَّةٍ دون المقام

obeikandl.com

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

قال أبو العَلاَء :

جهلٌ بمثلك أن يزور بلادنا ... يختال بين أساور وخلاخل

أو ما رأيت الليل يلقى شهبه ... حتى يجاوزها بحلّة عاطل

وقال الوزير ابن زبدون :

قميدك أنّى زرت نورك واضح ... وعطرك نمّام وحَليك مرجفُ

هبيك اعترت[1] الحى واشيك هاجع ... وفرعك غربيب وليلك أغضف[2]

فكيف اعتسفت الهول خطوك مدمج ... وردفك رجراج وخصرك مُخْطَفُ[3]

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها ، فتناوله كلا الشاعرين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كلّ منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلاً بينهما . ويلوح لى أنّ كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ... ومسيرها بالليل وهى ذُكاء

ولا يظهر ما قلته إلاّ بزيادة التدقيق ، وإطالة التأمّل .

* * *

وقال أبو العلاء :

آلَى أميرك لا يسرى الخيال لنا ... إذا هجمنا فقد أسرى وما عَلِمَا

---

(١) المعتر : الزائر — اعترت : زرت (٢) الأغضف : المظلم (٣) المخطف : المنطوى.

وكم تمنّتْ رجال فيك مُغْضَبَةٌ أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمَا

وقال مانى الموسوس ، وقد سأله محمد بن طاهر إجازة قول الشاعر :

حجبوها عن الرياح لأنّى قلت يا ريح بلّغيها السّلاَمَا
لو رضوا بالحجاب كان ولكنْ مَنعوها يوم الرِّياحِ الكلاَمَا

فقال :

فتنفّستُ ثمّ قُلْتُ لطيفى وَيْك لو زرت طيفها إلماما
حيِّها بالسلام سرًّا وإلاّ منعوها لشقوتى أن تناما

أقول : خلاصة المعنى للمبالغة فى الحجر عليها . فادعى أبو العلاء — أنّ وَلِىّ أمرها بالغ فى حجبها ، حتى حلف خيالُها ألاّ يزور حبيبها ، ولكن الخيال غافله وزاره ، ولضنّاه فى حبّه نحل ، فخفى على مَنْ يترصّدُ رؤيته . وقصّر مانى فلم تصل يده إلى الخيال . وبيتاه على ما فيهما من حسن التّخيل وعذوبة الألفاظ ينحطّان عن بيتى أبى العلاء .

* * *

وقال أبو العلاء :

ذكرت بها قِطْعًا من الليل وافيًا مضى كمضىّ السهم أقصر من قطعِ

وقال آخر :

ظلِلْنا عند دار أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب

وقال آخر :

ويوم كأبهام القطاة مُزَيَّنٌ إلىّ صباه غالب لىّ باطِلُهْ

فأبو العلاء شبّه الليل فى قصره بالقِطْع ، وهو النّصْل الصّغير ، والثانى

شبّه يومه فى قصره بعنق الذباب ، والثالث شبّهه بإبهام القطاة .

قال أبو يعقوب النحوىّ : وهذا أشدُّ مبالغة من قول أبى العلاء ، إلاّ أنه أغرب فى الصنعة ، من حيث إنّه ذكر قِطْع الليل وقطع السهم ، جاعلاً مُضىّ الليل كمضىّ السهم . اهـ

---

obeikandl.com

معتقـــــــــــده

فصل فى اختلافهم فيه .

« « معتقده فى الله .

« « معتقده فى النبوات والرسل .

obeikandl.com

obeikandl.com

فصل فى اختلافهم فيه

لم يختلف الناس فى رجل اختلافهم فى أبى العلاء ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم به. فلا غرو إذا قضى مثل هذا التناقض على الباحث فى أمره ألاّ يتلقّى ما قيل عنه بالقبول ، وأن يجنح إلى مقارنة ما نطق به بما نقل عنه توصّلاً إلى حكم باتّ فيه ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ .

وقد نأمّات المختلفين فيه ، فوجدتهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يُكفّرُونه ويحبُّونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه وربّما تغالوا فألحقوه بالأولياء ، الواصلين ورووْا له الكرامات .

وآخرون متحيّزون أمسكوا عنه ، ووكلوا أمره لخالقه . وأنا بادئ بذكر أقوالهم فيه ، ثمّ معقبها بما ثبت عن أقواله ، مقسمة إلى فصول ، كما فعلت بأخباره فأقول :

ذكر غير واحدٍ أنه كان متهماً فى دينه ، وأنهُ اجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة فسمع كلامه فحصل له بذلك شكوك . واستدلوا أيضاً على إلحاده بتجافيه عن أكل الحيوان خمساً وأربعين سنة قالوا : وهذا من اعتقاد الحكماء المتقدّمين لأنّهم يرون فى ذبح الحيوان — تعذيباً له . وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقل . ونقلوا عن تلميذه أبى زكريا التبريزى أنّه قال : قال لى المعرّى مرّة : ما الذى تعتقد ؟ فقلت فى نفسى : اليوم أقف على اعتقاده . فقلت له : ما أنا إلاّ شاكٌّ . فقال : وهكذا

شيخك . وقال فى حقّه البـاخرزى فى « دُمْيَة القصر » : « ضرير ماله فى أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج . وقد طال فى ظلال الإســـلام أناؤه ، ولسكن ربّما يترشح بالإلحاد إناؤه ، وعندنا خبر بصره والله أعلم ببصيرته ، والمطّلع على سريرته وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، ككتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذّ تلك الموسات كما يُجَذ العَيْرُ الصليانه ، حتى قال فيه القـاضى أبو جعفر قصيدة أولها:

كلب عوى بمعرّة النعمـان ... لمّا خلا عن ربقة الإيمـــان

أمعرّة النعمـــان ما أنجبت إذ ... أخرجت منك معرّة النعمان

انتهى .

وممن حكم بزندقته شمس الدّين الذهبى ، وأطال فى ترجمته ، وذكر له فيها قبائح . قال الصفدى : وأظن الحافظ السِّلَفِىّ قال أنّه تاب وأناب . وتحامل عليه أبو الفداء فى تاريخه وغضّ منه كثيراً ، حتى اضطرّ ابن الوردى للرد عليه . وفى « الـكوكب الثاقب » أن القاضى المنازى دخل عليه فذكر مايسمعه من الطعن فيه ، ثمّ قال : مالى وللناس ، وقد تركت لهم دنياهم ، فقال المنازى وأخراهم أيضاً ، فقال يا قاضى ! وأخراهم أيضاً . وجعل يكرّرها . وفى هذه الرواية تحامل من المؤلّف ؛ فقد رواها ابن خلـكان فى ترجمة المنازى على أنه قال له : والآخرة أيضاً ، وجعل يكرّرها ، ويتألم لذلك ، وأطرق فلم يكلّمه إلى أن قام .

ونقل ياقوت عن « رسالة الغفران » أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أجلى أهل الذّمة عن جزيرة العرب شقّ ذلك على الجالين ، فيقال . إن رجلاً

من يهود خيبر . يعـــرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ ... رُوَيْدَكَ إنّ المرء يطفو ويرسبُ

كأنّك لم تتبـــع حَمُولة مأقط ... لتشبع ، إنّ الزاد شىء محبّبُ

فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتُمُ ... علينا ؛ ولـكن دولة ثُمّ تذهبُ

ونحن سبقناكم إلى اللين فاعرفوا ... لنا رتبة البادى الذى هو أكذبُ

مشيتم على آثارنا فى طريقنـــا ... وبغيتكم فى أن تسودوا وترْهَبُوا

ثمّ قال ياقوت : وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نحله هذا اليهودى ؛ أو أن إيراده لمثل هذا ، واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيـدته ، وقبح مذهبه. انتهى .

والعجب من ياقوت ، كيف يزعم هذا الزعم ، ومن أين أتى له أنّ هذه الأبيات من شعره ، أو أنه أوردها استلذاذاً بها ، وهو إنّما جاء بها فى أثناء كلامه على الزنادقة وتقبيح أعمالهم . وأحر أن يكون إيراده لها فى عرض إنكاره عليهم ، من أبين الأدلة على حسن عقيدته . وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد تحقيق ذلك .

وسئل فتح الدين بن سيد الناس . ما كان رأى الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد فيه ، فقال : كان يقول هو فى حيرة . فقال الصفدىّ : وهـذا أحسن ما يقال فى أمره ؛ لأن فى كلامه تناقضاً كثيراً . وإلى الله ترجع الأمور .

هذا ما وقفت عليه من كلامهم فى سوء عقيدته ، إلا قليلا منه سيرد عليك فيما يأتى من الفصول .

ونقلوا عن رسالة ابن العديم أنه قال : إنى اعتبرت من ذمّ أبى العلاء ومن مدحه ، فوجدت كلّ من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدت كلّ من لقيه هو المادح له .

وقال ابن الوردى بعد ما أورد مراسلاته مع القاضى أبى الطيب الطبرى التى مرّ ذكرها فى أخباره : « وشهادة أبى الطيب فى الشيخ مقدمة على شهادة الغير ، وحسن الظن خصوصاً بالعلماء قد دلّ عليه القرآن والحديث، وهو لا يأتى إلا بخير . وكان شيخنا عبس حسن العقيدة فيه ، واعتراف الطبرى له ومدحه يكفيه :

شهادة الطبرىّ الحَبْرِ كافيةٌ ... أبا العلاء فقل ما شئت أو فذر

من أغمد السيف عنه كان فى دعة ... ومَنْ نضى السيفَ قابلناه بالطَّبَرِ

انتهى كلامه . وقوله قابلناه بالطبر فيه تورية ، والطَّبَرُ هو الطبرزين معرب ومعناه : فأس السرج ، لأن فرسان العجم كانت تحمله معها تقاتل به ، ويقال له عندهم التَّبَر . كذا ذكر المُحِبّى فى « قصد السبيل ، فيما فى اللغة العربية من التدخيل » .

ونقلوا أيضاً عن رسالة ابن العديم المذكورة أنه قال : قرأت بخط أبى اليسر شاكر المعرّى فى ذكره ، وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد بالتعطيل ، ويعمل تلاميذه وغيرهم على لسانه الاشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة ، قصداً لإهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، فقال رضى الله عنه :

حاول إهوانىَ قومٌ فما ... واجهتُهم إلاّ بإهوانِ

وحرّشُونى بسَعَايَاتِهِمْ ... فغيّرُوا نيّةَ إخوانِى

لو استطاعُوا لوشَوْا بى إلى ... المرّيخ فى الشُّهب وكيوانِ

وقال أيضاً :

غريت بدمّى أمّةً ... وبحمد خالقها غريت

وعبدت ربى ما استطعت ومن برّيته بريت

وفرتنىَ الجهّـــــال حا ســـدة علىّ وما فريت
سعـــــروا علىّ فلم أحـــسّ وعنـــدهم أنى هريت

قال الصفدىّ : « وأمّا للوَضوع على لسانه ، فلعلّه لا يخفى على مَنْ له أُبٌّ . وأما الأشياء التى دوّنها ، وقال بهـا فى « لزوم مالا يلزم » وفى « استغفر واستغفرى » ، فما فيه حيلة . وهو كثير ، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات . ويحتمل أنّه ارعوى وتاب بعد ذلك كلّه . وحُكىَ لى عن الشيخ كمال الدين بن الزملكانى أنه قال فى حقّه : هو جوهره جاءت إلى الوجود وذهبت » .

انتهى كلام الصفدى : قلت : أما استغفر واستغفرى فلم أقف عليه ؛ فإن كان ما فيه يشبه ما فى لزوم مالا يلزم ، فسيرد عليك ما يزيل الشك فيه :

وقال ابن اوردى فى تاريخه : وأنا كنت أتعصّب له لكونه من المعرّة ، ثم وقفت له على كتاب استغر واستغفرى فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ، ونظرت له فى كتاب لزوم مالا يلزم ؟ فرأيت التَّبرى منه أحزم ، فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما عالماً حائراً ، ومذبذباً نافراً ، يقرّ فيهما أنّ الحقّ قد خفى عليه ، ويود لو ظفر باليقين فأخذه بكلتا يديه ، كما قال فى مرثيّة أبيه :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبرينى يا جهين سوى الظّنّ
فإن تعهدينى لا أزال مسائلاً فإنّى لم أُعطَ الصحيح فأستغنى

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » الذى أملاه على الشيخ أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهانى ، الذى لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام بحلب ، يروى عنه كتبه ، فكان هـذا الكتاب عندى مصلحاً لفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ، فإنه كتاب يحكم بصحة

إسلامه مؤهلاً ، ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة (وللآخرة خير لك من الأولى) ، فلقد ضمن هذا الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذّ السمع ، ويقر العين ، ويسرّ القلب ويطلق اليد ، ويثبت القدم ، من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريّته ، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذرّيته ، وتبجيل الصحابة ، والرضا عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتلقّى منهم ، وإيراد محاسن من التفسير ، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير ، وتضليل مَنْ أنكر المعاد ، والترغيب فى أذكار الله والأوراد ، والخضوع للشريعة المحمّدية وتعظيمها . وهو خاتمة كتبه ، والأعمال بخواتيمها . وقد يعذر مَنْ ذمّه ، واستحل شتمه ، فإنّه عوّل على مبادى أمره ، وأوسط شعره ، ويعذر مَنْ أحبّه ، وحرّم سبّه ، فإنه أطلع على صلاح سرّه ، وما صار إليه فى آخر عمره ؛ من الإنابة التى كان أهلها ، والتوبة التى تَجُبُّ ما قبلها ، وكان يقول رحمه الله : أنا شيخ مكذوب عليه » . انتهى كلامه بنصّه .

قلت : وليس فى لزوم مالا يلزم ما يصل بالإنسان إلى حدّ التبرّى منه ، كما ذكر الشيخ ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ما ذهب إليه ، وإنّما مراده أنّ علم الغيب محجوب عنه ، فلا يدرى عن أبيه : أهو فى شقاء أم نعيم ، وهما مثل قوله من هذه القصيدة :

جَهِلْنَا فلم نَعْلَمْ على الحرص ما الذى يُرَادُ بنا والعلم لله ذى المَنِّ

قال شارحه أبو يعقوب النحوى : « وهذا على معنى أنّ أمرَ السعادة والشقاوة مطوى عن العباد ، وأن الأمور كلّها بمشيئة الله تعالى ، وهى مستورة ولهذا كره السلف أن يقول القائل : أنا مؤمن حقاً ، بل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ؛ لا على معنى الشكّ فى الإيمان والاعتقاد ، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة ، وخفاء علم الله تعالى فى ذلك ، وانطواء أمر الخاتمة » . انتهى .

وذكر ابن الوردىّ فى تاريخه أيضاً : أنّ حسّاده أغروا به وزير حلب ، فجهّز لإحضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العَلاَء فى مجلس له بالمعرّة ،

فاجتمع بنو عمه إليه وتألموّا لذلك ، فقال : إنّ لى ربًّا يمنعنى ، ثمّ قال كلاماً منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ، ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ؛ فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجّده ، ومنهم مَنْ زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وهذه القصة رواها صاحب الكوكب الثاقب بزيادة تفصيل ، فذكر عن الغزالى أنه قال حدّثنى يوسف بن على بأرض الهركار ، قال : دخلت معرّة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرّى زنديق لا يرى افساد الصور .

ويزعم أن الرّسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحملة إليه من المعرة ، وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمّه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخى قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويركب تَنوخ الذل والعار ، فقال هوِّن عليك يا عمّ ، ولا بأس عليك ؛ فلى سلطان يذبّ عنّى ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : أنظر إلى المريخ أين هو ؟ فقال : فى منزلة كذا وكذا : فقال : زنه واضرب تحته وتداً وشد فى رجلى خيطا ، واربطه إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، ياعلّة العلل ، ياصانع المخلوقات ، وموجد الموجودات أنا فى عزك الذى لا يرام ، وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا بهدّة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ، فقتلت الخمسين . وعند طلوع

الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على فلما شاهدت ذلك ، دخلت على المعرّى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض المهركار ، فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : أكتب . وأملى علىّ أبياتاً من قصيدة أولها :

استغفر الله فى أمنى وأوجالى من غفلتى وتوالى سوء أعمالى

ثم ساق صاحب الكوكب الثاقب سبعة أبيات من هـــذه القصيدة . وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ؛ فإنها من شعره المفقود : وهذه القصة رواها غير واحد ، فلم يذكروا رصده للمريخ كما هنا ، وهو الأشبه بمذهب أبى العَلاء ؛ فإن من يقف على كلامه فى المنجّمين وتقبيح أعمالهم ، يحكم بأن هذا من الموضوع عليه والله أعلم .

والخلاصة أن الذى ظهر لى من مطالعة مؤلفاته ، أنه لم يكن ملحداً كما يزعمون ، بل كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله ، وإنما كانت تقع له — بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره ، فينفث نفثات يوهم ظاهرها ، وكان الأولى به تركها . وهى مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد ، بل فيهما ما إذا قارنته بمـــا قاله فى ضده لظهر لك جلياً أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وهلة كإنحائه تارة على الديانات ، ومدحه لها تارة أخرى ؛ فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان لاقتنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها ، بل أراد منتحليها المتاجرين بها ، وكثير ما هم فى كل زمن . وإنما أتى الرجل من جهة حسدته وشانئيه ، وولوع جماعة منهم بتقويله ما لم يقل ، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة ، حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك ، إذا ألقى إليها شىء من شعره فيه إيهام ، انصرفت إلى إساءة الظنّ به . وسيرد عليك من أقواله ما وافق

أقوال مشهورى المتصوفة ، وكبار الزهاد ، حذو القذة بالقذة . إلا أنها كتبت لهم ، وكتبت عليه فى خلقه شئون . ولهـــذا اقتصرت فى فصول معتقده على ما أثبته فى مؤلفاته دون ماروى عنه غير معزو لشىء منها ، وغالبه سخافات يتنزه شعر أبى العلاء عنها ، ولا يخفى وضعها على ذى لب ، كما قال الصفدى . كنسبتهم إليه قول القائل :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعـــاله وتزويجـــه بنتيه لابنيه فى الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فقد رشده ، وحاشا لأبى العلاء أن يكونه . ولا يخلو قائله من أحد أمرين : إما أن يكون مقراً بالشرائع ، عالما بأن زواج الأخ بأخته لم يكن محرّماً فى شريعة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام فيكون قوله هذا ضرباً من الهذيان والهوس . وإمّا أن يكون منكراً لها ، فيكون ذكره الزنا لا معنى له ، فإنّ معرفة الحلال والحرام لا تتأتّى إلّا من الشرائع . فضلا عمّا فى البيتين من بذاءة وقلة أدب تنبو عنهما نفس أبى العَلاَء . ولست منكراً أنّه ذكر سيدنا آدم عليه السلام فى « لزوم مالا يلزم » بما كنت أحبّ له عدم ذكره ، إلّا أنه لا يبلغ فى شناعته إلى هذا الحدّ ؛ وغاية ما فيه لومه عليه السلام على أكله من الشجرة ، وتسبّبه فى أذى ذريّته فى الدنيا بخروجه من الجنّة وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقلّ . وقدردّ على هذين البيتين القاضى أبو محمّد الحسن بن أبى عقامه اليمنّى بقوله :

لعمرك أمّا فيك فالقـــول صادق وتكذب فى الباقين مَن شَطَّ أوْدنا
كذلك إقـــرار الفتى لازم له وفى غيره لغـــو كذا جاء شرعنا

وليت القاضى تثبت من نسبة البيتين قبل تكلّفه بهذا الشعر الركيك . ونسبوا إليه أشياء أخرى من هذا القبيل أضربت عن ذكرها تفادياً عن الاشتغال

بالعبث. إلا أن ألمّ ببعضها إلماماً فيما يأتى من الفصول المناسبة. كما أنى لم أتعرّض لما أخذ عليه فى « سقط الزند » ، لأنه لا يخرج عن كونه من الغلو الواقع لكثير من الشعراء ، وقد كفانا مؤونة البحث فيه بقوله فى خطبته :

« وما وُجِدَ لى من غلوٍّ عَلِقَ فى الظاهر بآدمىٍّ ، وكان مما يحتمله صفاتُ الله عزّ سلطانُه ، فهو مصروف إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل أو غبر أو لم يخلق بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا فى المين لا جهة له ، فأستقبل الله العثرة فيه » .

وقد أورد شارحه فى التنوير بعض أبيات من ذلك فى شرح الخطبة . ومما لم يذكره قوله ، وهو عندى أشنع ما فى « سقط الزند » :

باهَتْ بمهْرَةَ عدنانا فقلت لها لولا الفُصَيْصِىُّ كان المجد فى مضر

فهذا ولا ريب من محض المين الذى لا جهة له ، وقد استقال الله العثرة فيه ، والله يغفر لمن يشاء . وما عداه ليس فيه شىء سوى الغلو المفرط . على أنه لم يأت به إلا فى أبيات معدودة لا تتجاوز العشرة ، ولكن القليل من هذا كثير . وعندى أن لا وجه لاغتفاره لقائله ، وفى غيره من الكلام مندوحة عنه . ولعله سرى لأبى العلاء من أبى الطيب المتنبى ، فقد كان ولوعاً بهذا النوع . ومنه قوله :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرنا شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما أنشق حتى جاز فيه موسى

سامح الله أبا الطيب ، فما كان أغناه عن هذا الغلو الممقوت ، مع قدرته على نظم ما هو أوقع فى النفوس ، وأخف على الأسماع ، وأقبح منه قبول

ممدوحه له ، وإجازته عليـــه ، ولا أدري ما كان عند المعز فى قبوله قول ابن هانىء :

ماشئت لاماشاءت الأقـــدار فاحكم فأنت الواحـــد القهار

اللهم إلا أن يكون ما نقل عن القوم من دعوى الألوهية فى الباطن صحيحاً . وما فى « سقط الزند » دون هذين القولين بمراحل .

وقد رأيت أبا العلاء ، شديد النكير على ابن هانىء وأضرابه فى « رسالة الغفران » واستقبح منهم هذا الغلو ، فلعله رجع عنه .

وقد عقد الثعالبى ـ فصلا فى يتيمته لما أخذ على أبى الطيب ، جاء فيه بأشياء محجوجة. ومع هذا فلم ينتهجوا بإكفاره كما فعلوا مع أبى العلاء ، وذلك لما وقر فى النفوس من شهرته بالزندقة ، كما ذكرت آنفا ، حتى كادوا يلصقون به كل شعر من هذا القبيل .

وقد رأيت بعضهم يروى له قول المتنبى :

أغاية الدين أن تحفـــوا شواربكم يالأمة ضحكت من جهلها الأمم

هـــذا وديوان أبى الطيب مشهور متداول فى الأيدى ، فما ظنك بغير المشهور ؟

وكذلك أبو نواس ـ لما كان مشهوراً بالإجادة فى وصف الخمر ، نسبوا إليه مالم يقله ، فـكثر المنحول فى شعره . . .

ونقل عن بعض العلماء أنه كان يقول : أوشك هؤلاء الرواة أن ينسبوا للمجنون كل شعر فيه ليلى ! ! وقوله هذا ينبغى للاديب أن يتنبه له ، فلا يقدم على نسبة قول لقائل بسبب اسم اشتهر به ، ولهج بذكره ،فى شعره ، فقد كان للشعراء أسماء شائعة بينهم خفت على ألسنتهم ، وحلت فى أفواههم ، فكانوا

كثيراً مايأتون بها زورا ، نحو . ليلى ، وهند ، وسلمى ، ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريا ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ، والرباب ، وجمل وزينب وأشباههن ـ ذكر ذلك ابن رشيق ، ثم قال : وأمّا عزّة وبثينة فقد حماها كثير وجميل ، حتى كأنما حرمتا على الشعراء . انتهى .

وكما اشتهر بعض الشعراء بأسماء ، اشتهر غيرهم بفنون وأنواع غلبت عليهم ، وسهلت على نفوسهم ، فأجادوا القول فيها ، كأبى نواس فى الخمر ، والبحترى فى الطيف ، وأبن المعتز فى التشبيهات ، وديك الجنّ فى المراثى ، وأبى الطيب فى الأمثال والحكم ، وابن الرومى فى الهجاء . بل رأيت بعض الشعراء ، غلبت عليهم ألفاظ استعملوها كثيراً كأم دفر عند المعرى ، وابن ودى عند محمود سامى باشا البارودى ، ومن تتبع شعر كل شاعر : ربمالايعدم أمثالها فيه .

فيكون اقتصارنا على ما أثبته أبو العلاء فى مؤلفاته ، أدعى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الاعتساف .

* * *

واعلم أرشدك الله ، أنى لم أنتصر له فى بعض المواضع جنوحاً إلى عصبيته أو استرسالا مع هوى . ولكنى وقفت فى الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لايخالطه شك . فكان تأويل ماعداها بما يحتمله اللفظ أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن والحكم عليه بالزندقة خصوصاً وأن مايدل على إيمانه صريح فى لفظة ، والذى يوهم محتمل لوجهين ، فحمله على مايوافق الصريح من أحد وجهيه أحق وأصوب .

فاذا رأيت شيئاً من ذلك فلا تتسرع فى الإنكار على . بل عليك بتحسين الظن ، ومراجعة النظر ، تجد ماقلته غير بعيد . وحسبك ماأثاروه على

الإمام أبى حامد الغزالى » فى قوله : [ليس فى الإمكان أبدع مما كان] حتى وضعوا فيه المؤلفات ، وشغلوا الناس بالترهات ولاشك أنه لم يرد بقوله هذا ماذهبوا إليه وتأولوه ـ وأى مسلم يخالجه ريب فى عقيدة هذا الإمام ، وهو حجة الإسلام ؟ .

ولله در أبى العلاء حيث يقول :

جِوَارُكَ هذا العالَمُ اليومَ نكبةٌ ... عليه وليس البينُ عنه مُيَسَّرَا
سيعلم ذاكَ المدَّعى صحّةَ الهُدى ... متى كان حقٌّ أبْنَا كان أخْسَرَا

ويقول :

لحى اللهُ قومًا إذا جئتهم ... بصدقِ الأحاديث قالوا كَفَرَ

ويقول :

أما فى الأرض من رجلٍ لبيب ... فيفرق بين إيمان وكفر

وقال أيضاً :

لاتقيّدْ لفظى علىّ فإنى ... مثلُ غيرى تكلّمى بالمجاز

ومثله قوله :

وليس على الحقائق كل قولى ... ولكن فيه أصناف المجاز

قصيدة لأبي العلاء المعرى [1]

هذه قصيدة لأبى العلاء لا توجد فى « الديوان » وقد أوردها الصفدى فى « الوافى بالوفيات » عن سبط بن الجوزى فى ترجمة أبى العلاء .

استغفر الله فى أمنى وأوجالى ... من غفلتى وتوالى سوء أعمالى

قالوا هرمت ولم تطرق تهامة فى ... مشاة وفد ولا ركبان أجمال

فقلت إنى ضرير لم يحجّ أبى ... ولا ابن عمى ولم يعرف منى خالى

وحجّ عنهم قضاء بعد ما ارتحلوا ... قوم سيقضون عنى بعد ترحالى

فإن يفوزوا بغفران أفز معهم ... أوْ لاَ ، فإنّى بنار مثلهم صالى

ولا أروم نعيماً لا يكونُ لهم ... فيه نصيب وهم أهلى وأشكالى

فهل أسرُّ إذا حُمّت محاسبتى ... أم يقتضى الحكم تعتابى وتسآلى

من لى برضوان أدعوه فيرحمنى ... ولا أنادى مع الكفار أمثالى

باتوا وتحفى أمانيهم مصوّرة ... ومتّ لم يخطروا منّى على بالى

وفوقوا لى سهاماً من سهامهم ... فأصبحت وُقعاً عنى بأميال

فما ظنونك إذ جندى ملائكة ... وجندهم بين طوّاف وبقّال

لقيتهم بعصى موسى التى منعت ... فرعون ملكا ونجّت آل اسرال

أقيم حيى وصوم الدهر آلفه ... وأومن الذكر أبكاراً بآصال

---

(١) قد أشار المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا إلى هذه القصيدة — بالمداد الأحمر فى جذاذة من الورق ، فآثرنا إثباتها بنصها وهى التى أرسلها لمجلة المقتبس الأستاذ مرجليوث استاذ العربية بكلية اكسفورد وقال : ان الصفدى أوردها فى « الوافى بالوفيات » عن سبط ابن الجوزى فى ترجمة أبى العلاء

عيدين أفطر فى عامى إذا حضرا ... عيد الأضاحى يقفو عيد شوّال
إذا تنافست الجهـــال فى حال ... رأيتنى فى خسيس القطن سربالى
لا آكل الحيوان الدهر مأثرة ... أخاف من سوء أعمـالى وآمالى
وأعبـــد الله لا أرجو مثوبته ... لكن تعبد إكرام وإجـلال
أصون دينى عن جُعْل أؤمّله ... إذا تعبّـــدَ أقوامٌ بأجعال

تمت

obeikandl.com

فصل في معتقده فى الله

من زعم أن أبا العلاء كان من منكرى وجود الإله جل وعلا ، فقد زعم باطلا ، واسرف فى الشطط ، ودلّ على جهله بحقيقة معتقده . وهيهات أن تنهض له حجة ، أو يجدَ لزعمه مستنداً ، لو طالبناه بالدليل .

ونحن مثبتون فى هذا الفصل من أقواله ما ليس وراءه متسع لطاعن ، أو مجال لمتقوّل ، وبادئون منها بثلاثة أقوال ، ربما خفى المراد منها على كثيرين ، فأوّلوها على غير ما ينبغى أن تؤوّل ، ثم نتبعها بما يكشف الرّين عن عقيدة الرجل فى خالقه .

* * *

أولها قوله :

قُلْتُمْ لنَا صَانِعٌ حكيم ... قُلنَا : صَدَقْتُمْ ، كذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بلا مَكانٍ ... ولاَ زمَانٍ أَلاَ فَقُولوا
هذا كلاَمٌ لهُ خَبِىٌّ ... مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لنَا عُقُولُ

وليس فى هذه الأبيات إنكار لوجود الإله ، وحسبت منها قوله : « قلنا صدقتم كذا نقول » ، لكن يؤخذ من ظاهرها إثبات الزمان والمكان له تعالى ، وهو ما لا يقول به إلاّ المجسمة وأضرابهم . تنزه الله عما يقولون . وقد ذكر صاحب معاهد التنصيص أن الفخر الرّازى أورد هذه الأبيات فى كتابه الموسوم بالأربعين ، وأعقبها بقوله : « وقد هذى هذا فى شعره » ، وقد وقفت على نسختين من هذا الكتاب فلم أجده قال ذلك ، فلعل العبارة تحرّفت على صاحب المعاهد ، فتوهّم منها ما ذكره . ولما كان المقام يحتاج إلى

تفصيل لاستيضاح ما يرمى إليه أبو العلاء ، أقتضى أن ننقل إليك عبارة الأربعين ثم نعقبها بما ظهر لنا فى هذه الأبيات : قال « الفخر » فى مبحث حدوث العالم، وإيراد شبهات المخالفين وردها..

« السؤال الرابع : إذا قلنا كان الله موجوداً فى الأزل ، وسيكون موجوداً فى الأبد ، فقولنا كان يفيد أن أمراً كان موجوداً وحاصلا ، وقد انقضى وما بقى . ويكون يفيد أنّ أمراً سيصير موجوداً وحاصلا ، وبعد ما حصل . فإذن كلُّ ما يصدّق عليه أنه كان وسيكون ، فهو محكوم عليه بكونه متجدِّداً متغيراً ، فذات الله تعالى لما كان واجب الدوام ، ممتنع التغير ، وجب أن لا يصدق عليه البتة أنه كان فى الأزل ، وسيكون فى الأبد ، وأنه كائن الآن . ثمّ لما جرّ بنا عقولنا وجدناها حاكمة بأنّ كلّ ما لا يصدق عليه أنه كان قبل وسيكون بعد وأنه كائن الآن ، فهو عدم محض : وعند هذا قال المفكرون إنكم لما أثبتم ذاته منزهة عن الجهات والأيون والأوضاع ، خرج هذا الإثبات عن العقل ، واقترب من العدم المحض ، ثمّ إنكم لما أثبتموه منزهاً عن أن يصدق عليه قولنا كان ويكون وهو كائن فهذا تصريح بالعدم المحض . فإن أدخلتموه تحت قولنا كان ويكون وهو كائن ، اقتضى ذلك الحكم بكونه متجدِّدا متغيرًّا ، فكيف الخلاص من العقد المحيرة ، والمضايق المضلة المعمية . ونظم المعرِّى هذا المعنى فى شعر له فقال . . . » انتهى .

ثم أورد الأبيات ، إلا أنه روى مكان قوله « زعمتموه » ، « ثم زعمتم » وشرع فى الردّ على هذا السؤال . فقال :

« الجواب عن السؤال الرابع : وهو قوله إن كل ما يصدّق عليه كان ويكون فهو متجدد متغير ، فنقول المراد من قولنا كان ويكون استمراره

مع الأزمنة الآنية والأزمنة الماضية ، من غير أن يكون متغيرا بحسب تغير هذه الأزمنة ، وهذا المعنى لا يدركه إلاّ العقل الذى نوّره الله بنور هدايته . وإن كان الوهم والخيال يعجزان عنه . » انتهى كلامه .

ثم ساق حجج المشايخ على بقاء الصانع بما يخرج من قصدنا هنا ولا يخفى ما فى قوله إن هذا المعنى لايدركه إلا العقل الذى نوره الله بنور هدايته فإذا علمت أنّ مذهب السلف رضى الله عنهم فى الصفات النقلية ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ونحوها ، أنها صفاتٌ ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلاّ اعتقاد ثبوتها والتصديق بها من غير تفسير ولا تأويل ، مع عدم التجسيم والتشبيه ، لئلا يضادَ النقل العقل — ظهر لك أن عبارة أبى العلاء إنما ترمى إلى هذا المعنى ، وتشير إلى هذا القصد فمراده أنّ مثل هذه الأمور لا تتسع العقول لإدراكها ، بل هى مما استأثر الله بعلمه . وليس فى الأبيات ما يمنع من حملها على ذلك . بل كيف يتصوّر فى الرجل اعتقاد التجسيم ونحوه ، وهو القائل فى موضع آخر :

تَعَالَى اللهُ وَهُوَ أَجَـلُّ قَدْرًا مِنَ الإِخْبَارِ عَنْهُ بِالتَّعَالِى

ومن يذهب فى التنزيه إلى هذا الحدِّ لا يتصوّر فيه اعتقاد التجسيم :

ثمّ اعلم أن مذهب السلف يرجحه كثيرون من المتكلمين . وكان الامامان مالك والزهرى يقولان به ، بل هو عقيدة الامام أحمد بن حنبل وأتباعه إلى يومنا هذا . وإنما رجحوه لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، وهو الأوفق لحمل العامة عليه ، صيانة لعقولهم عن الزلل ، كما فصله الامام الغزالى فى « الجام العوام ، عن علم الكلام » . وقد وقفت على فصل للفخر الرّازى فى تفصيل هذا المذهب ، ذكره فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » مع أن هذا الإمام من كبار الأشعريه القائلين بالتأويل .

ولله درّ الامام خميس بن على الواسطى حيث يقول :

تَرَكْتُ مَقالاتِ الكلام جَمِيعَها ... لِمُبْتَدِعٍ يَدْعُو بِهِنَّ إلى الرَّدَى
ولا زِمْتُ أصْحَابَ الحَدِيثِ لأنَّهُمْ ... دُعَاةٌ إلى سُبُلِ المَكارِمِ والهُدَى
وهَلْ تركَ الإنسانُ فى الدينِ غايةً ... إذَا قالَ قَلَّدْتُ النبىَّ مُحَمَّدَا

على أنّ كثيرا من أئمة الكلام أيضاً يرجعون مذهب الخلف فى تأويلهم هذه الصفات تأويلاً يليق بجلال المولى عزّ وجل ، لما فى هذا المذهب من مزيد الايضاح والرّدّ على الخصوم . ولكلّ من أصحاب المذهبين وجهة لا يريدون بها إلا الوصول إلى الحقّ ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء .

* * *

الثانى من الأقوال قوله :

أمّا الإلهُ فأمْرٌ لَسْتُ مُدْرِكَهُ ... فَاحْذَرْ جِيلَكَ فَوْقَ الأرْضِ إسْخَاطَا

وليس فى هذا أيضاً إنكار لوجود الله تعالى ، وإنما فيه الإيماء إلى عجز البشر عن إدراك كنه ذاته تعالى . ولعمرى ما نطق إلا بالصواب . وأين لمخلوق ضعيف لا يصل إلى كنه نفسه من الوصول إلى هذا المقام ؟ وفى كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطى . قال شارح منازل السائرين فى بيان عجز العقول عن إدراك الذّات المقدّس ، وترك الفكرة فى ذلك . « يعرف العبد أن عقله يعجز عن إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلاً عن خالقها وقد عجزت العقول عن إدراك الخاصية التى تجذب بها المغناطيس الحديد ، والسقمونيا والأخلاط الصفراوية ، إلى غير ذلك ، مع القطع بوجودها فإذا عرف العبد عجزه ، وأيس من الوقوف على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال وسلم بذلك من الوقوع فى شىء من الاختلال » . انتهى .

وفيما نقل عن أمير المؤمنين كرّم الله وجهه أنّه كان يقول :

« التوحيد أن تتوهمه » ويقول . « كلّ ما أدركته فهو غيره » . وكان الصدّيق رضى الله عنه يقول . « لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ » ، فالأكثرون على حمل البصر هنا على الجارحة ، من حيث إنها محلّ القوّة .

وقيل هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام . فالبيت على هذا عَقْدٌ لمعنى هذه الآية الكريمة . وقريب منه قوله من قطعة إلى أخرى .

وإنَّ إلهِى إلهُ السَّمـــا ءِ رَبُّ الوُهُودِ وَرَبُّ النَّبَكْ
سَأَلْتُ المُحَدِّثَ عَنْ شَأْنِهِ فما زَالَ يَضْعُفُ حَتَّى ارْتَبَكْ

* * *

الثالث : قوله :

مَتَى عَرَضَ الحِجَا للهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ عليْهِ وإنْ عرُضْنَهْ

ومعناه ظاهرٌ بيِّن ، يشبه ما فى القول السابق . وقد فسّره بعضهم . بقوله : « أى لا يزال عقل الإنسان يتسع مجاله فى الأمور ، ويستعمل أنواع القياس ، حتى ينتهى إلى الله تعالى . فإذا انتهى إليه ضاقت المذاهب عليه ، فلم يعلم أكثر من أنه سبحانه خالق المخلوقات » انتهى .

وقد أحسن أبو العَلاَء فى قوله بعد هذا البيت .

وَقَدْ كَذَبَ الَّذِى يَغْدُو بِعَقْلٍ لتَصْحِيحِ الشُّرُوعِ وَقَدْ مَرِضْنَهْ

الشروع . جمع شرع . قال بعض الفضلاء . « مَرَضُ الشَّرَائِعِ أن تخفى أسبابها ، فلا يوقفُ على حقائقها ، فيظنّ الناظر فيها أنّها فاسـدة ، وإنما الفاسد عقله ، لأنّه تعاطى سراً غامضاً ليقف عليه انتهى .

قلت : فليت المتبجّحين كلّ يوم بإصلاح الدِّين الإسلامىّ ليوافق روح

العصر كما يزعمون ، ينظرون نظرة فى هذا البيت ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

* * *

وبعدُ ، فليس فى كلام أبى العلاء ما يوهم نقصاً فى حقّ الخالق سبحانه وتعالى ، فضلاعن إنكاره وجوده ، غير هذه الأقوال . وقد عرفت أنهاليست فىشىء من ذلك البته فلم يبق إلا أن نسرذلك عيون أقواله الدالة على حسن معتقده فى خالقه . قال :

للمليك المذكَّراتُ عبيدٌ	وكذاك المؤنثاتِ إماء
فالهلالُ المنيفُ والبدرُ والفر	قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والذئـ	ـرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا	بك فى قول ذلك الحكماء
خلّنى يا أخىّ استغفر الله	فلم يبق فى إلا الذماء

وقال :

إذا قيل لك أحسن الله مولاك فقل . آرا

آرا . كلمة فارسية ، ومعناها نعم . وقال :

بعلم إلهى يُوجَدُ الضعف شيمتى	فلستُ مطيقاً للغدُوّ ولا المسْرَى
غبرت أسيرًا فى يديْه ومن يكُن	له كرمٌ تُكْرَمْ بِساحَتِهِ الأسْرَى
أأُصْبِحُ فى الدُّنيا كما هو عالمٌ	وأُدْخَلُ نارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أو كسرى
وإنى لأرجو مِنْهُ يَوْمَ تجاوُز	فيأمُرُ بى ذَاتَ اليمينِ إلى اليُسْرَى
وإن أعْفَ بعد الموْت مِمَّا يُريبُنى	فما خَطَّىَ الأدْنى ولا يَدىَ الخُسْرَى

اليسرى هنا ، من اليسرى ضد العسر ، وليست من اليسار ضداليمين وقال

اللهُ لا ريبَ فيه وَهْو مُحْتَجِبُ بادٍ وكلٌّ إلى طبعٍ له جَذِبَا

وقال :

لا تكذبنَّ فإن فعلت فلا تقُلْ كذباً على ربِّ السماء تكسُّبَا
فاللهُ فردٌ قادرٌ من قبل أن تُدْعَى لآدَمَ صُورَةٌ أو تُحْسَبَا
وإذا انتسبت فقلتَ أنِّيَ واحدٌ من خَلقهِ فكفى بذاكَ تَنَسُّبَا

وفى معنى البيت الثانى قوله من قطعة أخرى .

ما زالَ مُلْكَ اللهِ يظهرُ دائباً إذ آدمٌ وأبوه فى الإضْمَارِ

لعلَّه أراد بأبيهِ : التراب الذى خلق منه ، وفى بعض النسخ : وبنوه وهو ظاهر .

وقال :

ولمْ يحبُنى أحـــدٌ نعمَةً ولكنَّ مولى الموالى حَبَا
نصحتكَ فاعمــل له دائباً وإن جاءَ مَوْتٌ فقُلْ مَرْحبَا

ومن طمعه فى عفو ربه ، قوله :

أرى اللُّبَّ مرآةَ اللبيبِ ومن يكُنْ مرائيَهُ الإخوانُ يُصْدَقْ ويُكْذَبِ
أأخْشَى عَذَابَ اللهِ واللهُ عادِلٌ وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ المُسْتَضَامِ المعذَّبِ

ومثله قوله :

وما أنا يائسٌ من عفْو ربِّى على ما كانَ من عَمْدٍ وسَهْوِ

ومثله قوله أيضاً :

لم لا أؤمِّلُ رحمةً من قادِرٍ والسُّولُ يُطْلَبُ فى السَّحَابِ الأسْوَلِ

وقال يذكر خوفه من العقاب :

طُوبَى لموءودة فى حال مولدها ظلماً فليت أباها الفظَّ موءودُ
يا رب هل أنا بالغفران فى ظَمَنِى مزوَّدٌ إنّ قلبى منك مزءودُ

وقريب منه قوله :

قد فنِى الوقتُ فما حيلتى إذا انقضى الإمْهَالُ والْمَهْلُ
إن حرم اللهُ بفضـــرانهِ فكلُّ ما لا قيتُه سَهْلُ

وقال فى خوفه وطمعه :

أمَّا الحياةُ فلا أرجو نوافلَها لكننِى لإلهى خائفٌ رَاجِ
ربِّ السَّماكِ وربِّ الشمسِ طالعةً وكلِّ أزهرَ فى الظَّلماء خرَّاج

ولله درُّه حيث يقول :

ليَفْعَلِ الدهرُ ما يَهُمُّ بهِ إنَّ ظنُونى بخالقى حَسَنَهْ
لا تيأسُ النفسُ منَّ تفضلِهِ ولو أقامت فى النَّار ألفَ سَنَهْ

وقال :

أرَى انكِفَاتِى إلى للنايا أغْنَى عن الأُسْرَةِ الكُفَاةِ
أثبتُ لى خالقاً حكيماً ولست من معشرٍ نُفَاة

وقال :

سبحان من برأ النجومَ كأنّها دُرٌّ طفَا من فوقِ بحرٍ مائِجِ
لو شاء ربُّكَ صيَّرَ الشرطينِ منْ هذى الكواكب عند أدنى ثائجِ
والتاجُ تقوى اللهِ لا ما رصَّعُوا ليكونَ زيناً للأمير التَّائجِ

وقال من أخرى :

فزِعُوا إلى ذكر المليكِ وحَسْبُهُمْ أنْساً بذلكَ فى الضمير الوالجِ

وقال :

أحاذرُ السَّيْلَ ومن لى بمن ... جاءَ إذا أسمعنى رَعْدَهْ
والوقت لا يفتأُ فى مَرِّهِ ... مُقَرِّباً مِنْ أجَلٍ بُعْدَهْ
فراقب الخالقَ بالغيبِ فى الـ ... غيمةِ والنميمـــةِ والقِعْدَهْ

أراد الهيئة من القيام والدوم والقعود، فجاء بها على فعله بكسر الأول وهو عقد لمعنى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنُوبِهم ومعنى الآية ، والله أعلم . الذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم ، كما ذهب إليه بعض المفسّرين .

وقال أبو العلاء :

إذا كنتَ من فرط السقام معطِّلاً ... فياجاحد اشْهَدْ أنّنى غيرُ جاحِدِ
أخافُ من اللهِ العقوبة آجلا ... وأزعمُ أنّ الأمْرَ فى يدِ واحِدِ
فإنّى رأيتُ المُلْحِدِينَ تعُودُهُمْ ... ندامتُهُمْ عند الأكُفِّ اللَّواحدِ

ليت شعرى كيف يرمى بالإلحاد من يخاطب الملحدين بمثل هذا الكلام ؟

وفيهم يقول أيضاً :

أمَّا المُجَاوِرُ فارْعَهُ وتَوَقَّهُ ... واستعفِ ربَّكِ من جِوَارِ المُلْحَدِ
بئس الذى جحد المليكَ وقد بدت ... آياتُه بأَخٍ لمن لم يَجْحَـــدِ

ويقول :

إذا ما أَلْحَدتْ أممٌ بجهلٍ ... فقابلها بتوحيدِ السيوفِ
كأنّا فى سجايانا نُقُودٌ ... كثيراتُ البهارِجِ والزُّيوفِ
وهذى الأرضُ للملك المرجّى ... نُلِمُّ بها كإلمامِ الضُّيُوفِ

وقال :

تعالى اللهُ كم مَلِكٍ مَهيبٍ تَبَدَّلَ بعد قَصْرٍ ضيق لَحْدِ
أقرُّ بأنَّ لى ربًّا قديرًا ولا ألقَى بدائِعَهُ بجَحْدِ

وقال :

بوحدانيّة العـــلاَّمِ دِنًّا فذرنى اقطعْ الأيَّامَ وَحْدِى
سألت عن الحقائق كلّ قوم فما أَلْفَيْتُ إلاّ حَرْفَ جَحْدِ
سوَى أنِّى أزولُ بغيرِ شَكٍّ فَفِى أىّ البلاد يكون لَحْدِى

وقال :

ولقد وجَدْتُ ولاء قومٍ سُبَّةً فاصرِفْ ولاءَك للقديم الموجدِ

وقال :

يُسَمُّونَ بالجهل عبدَ الرَّحيم وعَبْدَ العزيزِ وعَبْدَ الصَّمَدْ
وما بلغوا أن يكونوا له عبيداً وذلك أقصى الأَمَدْ
ولكنه خالق العـــالـ ـين ذائِبِ أَجْسَادِهِمْ والجَمَدْ
تَعَمَّدْهُ يُغْنِكَ بالهَدْيِ أنْ تُدَرِّسَ مُغْنِيهِمْ والمُمَدْ

المُغْنى ، والمُمَد . كتابان أحدهما فى علم الكلام ، والآخر فى علم الأصول وهما للقاضى عبد الجبار بن احمد ، من كبار أئمة المعتزلة ، المتوفى سنة خمس عشرة أو ست عشرة وأربعمائة ، ولأبى محمد عبد الله بن العباس الأمهرمزى المعتزلى كتاب اسمه المغنى أيضاً ، إلا أن ذكره مقروناً بالمُمَد يدلُّ على أن المراد الأول .

وقال أبو العلاء :

كم غيَّرَتْنا بأمرٍ خطَّ حادثةٌ وَرَبُّنَا اللهُ لم تُلْمِمْ بِهِ الْغِيَرُ

وقال :

ما زال رُبك ثابتاً فى مُلكِهِ ... يَنمِى إليه لِلعِبَادِ جُوَار

وقال :

والجهل أغلبُ غيرَ علمٍ إننَا ... نفنى ويبقى الواحدُ القهّارُ

وقال فى الإقرار بالذنوب من قطعة :

غفران ربِّك قلَّ ما فعلَ الفتى ... ما ليسَ مُحوِجَهُ إلى استغفارِ

صدق اللهُ فغفرانَك اللهمَّ . وقال :

رَجَزَتْ بتسبيح لليك حمامةٌ ... بالشام تُوطِنُ أو تَحُلُّ حجازَا

والطَّيْرُ مثل الإنس تعرِفُ ربَّها ... وترى بها الشُّعراء والرُّجَّازَا

وقال فى معناه :

سَبَّحَ الله ناعِبٌ صَوْتُهُ : غا ... قٍ ، وكُدْرِيَّةٌ تَصيحُ : قطَا

وقال :

صنعة عزَّتِ الأنامَ بلُطْفٍ ... وعزَتْهَا إلى القدير الموازِى

مَلِكٌ أنْشَأَ السَّمَوَاتِ فَالْبَدْ ... رُ لديه فى صُورَةِ الجُلْوَازِ

كَمْ لَهُ كَوْكَبٌ أبرَّ وأزَّ الفَا ... سَ حتى سَطَا عَلَى أبرواز

وقال :

لنَا ربٌّ وليْسَ لَهُ نَظِيرٌ ... يُسيِّرُ أمْرَهُ جَبَلاً ويُرْسى

تَظَلُّ الشَّمْسُ ماهِنَةً لَدَيْهِ ... فما بِلْقِيسُ أم ماسِتُ برسى

وقال :

إذَا كُنْتَ بالله للمَيْمن واثقا ... فَسلِّمْ إليه الأمرفى اللفظ واللحظِ

يُدَبِّرُكَ خلاَّقٌ يُدبِرُ مقادِرًا تُخَطِّيكَ إحسان الغمائم أو تُخْطِي

وقال :

وَسِرْتُ عُمْرِى إلى قَبْرِى على مَهَلٍ وَقَدْ دَنَوْتُ فَحُقَّ الخوفُ والهلَعُ
مَا نحْنُ أمْ ما برايا عالَمٍ كُثُرٍ فى قُدْرَةٍ بَعْضُهَا الأفلاكُ يبتلعُ

وقال :

ندِينُ بأنَّ الله وترٌ وخوْفُهُ رشَادٌ فصلُّوا الوتر فى الدهر والشَّفَعَا

وقال :

الأرض لله ما استحى الحلولُ بها أنْ يَدَّعُوها وَهُمْ فى الدَّار أَضْيَافُ
تَنازَعُوا فى عَوَارِىَّ فَبَيْنَهُمُ نَبْلٌ حُطَامٌ، وأَرْماحٌ، وأَسْيافُ
إن خَالَفُوكَ وَلمْ يَجْرُرْ خِلافُهُمُ شرًّا فَلا بَأْس إنَّ النَّاسَ أخْيَافُ

أخياف . أى مختلفون ، ومنه . إخوة أحياف ، إذا كانت أمُّهم واحدة وآباؤهم شتى ، فإذا كانوا لأب واحد من أمهات شتى ، قيل . هم أبناء علات وقال فى معنى ما تقدم .

هو الفلكُ الدوارُ أجراهُ ربُّهُ على ما ترَى من قبل أن تجرِى الفُلْكُ
له العزّ لم يشركهُ فى الملك غيرُهُ فيا جهل إنسان يقول . لى المُلْكُ

ومثله قوله :

ويقولُ دارى من يَقُولُ واعْبُدِى مَهْ فالعبيـــــدُ لربِّنَا والدار

وقوله أيضاً :

والملْكُ لله مَنْ يَظفَرِ بنَيْل غنًى يَرْدُدْهُ قَسْرًا وتَضْمَنْ نفسُهُ الدَّركا
لَوْ كانَ لِى أوْ لِغَيْرِى قَدْرُ أُنْمُلَةٍ منَ التُّرَابِ لَكانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكا

ذكر الإسحاقى فى تاريخه أن السلطان سليمان العثمانى لما فتح مصر نزل بالروضة فى مكان أعدّ لهُ بالمقياس ، ونقل عن القطبىّ أنه رأى هذين البيتين مكتوبين بخطه بأعلى المقياس على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلاّ بالتأمل ، ومرقوم تحتهما . كتبه الفقير سليم . ثمّ قال . ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما فى غاية البيان والبراعة ، ونهاية فى الشعر العربىّ الفصيح المنسجم ، وإن كان تمثل بهما فهما أيضاً مرتبة عالية فى حسن التمثيل ولطف الاستحضار . انتهى . قلت . أما كونهما له فقد ثبت خلافه ، فلم يبق إلاّ أنّه تمثل بهما . وما هو بكبير على فضل هذا السلطان واطلاعه . وسلاطين آل عثمان ، وإن اشتهر عنهم قلة الاهتمام باللغة العربية ، فقد نبغ منهم جماعة فيها . منهم . السلطان محمد الفاتح ، وفضله فى الاشتغال بالعربية غير منكور . ومن شيوخه المولى خواجه زاده ، قرأ عليه متن عز الدين الزنجانى فى التصريف ، وكانت العلماء تجتمع عنده للمناظرة وتعجبه مباحثاتهم . ويحكى أنّه كان فى صغره غير مهتم بالطلب فأمر والده السلطان مراد المولى شمس الدين الكورانى بالتشديد عليه ، فصدع بأمره حتى ضربه مرة ضرباً موجعاً ، ولم يزل به حتى ختم القرآن الكريم فى مدة يسيرة ، ومنهم السلطان مراد الثالث ابن سليم المتوفى سنة ١٠٠٣ . كان أجمل أهل بيته علما وأدبا وذكاء وفهماً . اشتغل بالتصوف وبرع فيه ، ونظم الشعر باللغات الثلاث . الفارسية والتركية والعربية . ومنهم . السلطان أحمد بن محمد حفيد السلطان مراد المارّ ذكره . كان من فضلاء وقته ، مال للأدب والمحاضرات ، ونظم الشعر بالتركية . ومما يروى له من الشعر العربى قوله .

ظَبْيٌ يصُول ولا وصولَ إليه ... جَرَحَ الفؤادَ بصارمىْ لَحظَيْهِ
ما قام معتدلاً وهزّ قوامَهُ ... إلاّ تهتّكتِ السُّتُورُ عَلَيْهِ

يسقى المدامةَ من سُلافةِ ريقهِ ... ويخصُّنا بالغنج من جَفْنَيهِ
عَيْناهُ نرْجِسُنَا وآسُ عِذَارِهِ ... ريحانُنَا والوَرْدُ منْ خَدَّيْهِ
يَا شَعْرُ فى بَصرى وَلا فى خَدِّهِ ... إنِّى أُغَارُ منَ النَّسيم عَليهِ
عجَبى لسُلْطَانٍ يُعِزُّ بعدْلهِ ... وَيجورُ سُلْطَانُ الغَرَامَ علَيْهِ
لَوْلاَ أَخَافُ اللهَ ثمَّ جَحِيمَهُ ... لَعَبَدْتُهُ وسجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

والبيتان الأخيران من قصيدةٍ لابن رُوزَبْك الشِّيعِى ، أتى بهما السلطان على سبيل التَّضمين .

رَجع إلى شعر أبى العلاَء

فمن دلائل إيمانه بالله ، وتفويضه الأمر إليه ، قوله :

رددْتُ إلى مَليكِ الخلقِ أمْرِى ... فَلَمْ أَسْأَلْ مَتى يَقَعُ الكُسُوفُ
فكم سَلِم الجَهُولُ مِنَ المنَايَا ... وعُوجِلَ بالحِمَامِ الفَيْلسُوفُ

وقال :

والرُّوحُ طائرُ محْبِسٍ فى سِجْنِهِ ... حتَّى يَمُنَّ رَدَاهُ بالإطْلاقِ
سَيَمُوتُ محمودٌ ويهْلِكُ آلِكٌ ... ويَدُومُ وَجْهُ الواحِدِ الخلاَّقِ

وقال :

أَزُولُ وليْسَ فى الخلاَّقِ شَكٌّ ... فلا تَبكُوا علىَّ ولا تُبَكُّوا
خُذُوا سَيرِى فَهُنَّ لكُمْ صَلاَحٌ ... وَصَلُّوا فى حَياتِكُمُ وَزَكُّوا

وقال :

تَسَمَّتْ رِجالٌ بالملوكِ سَفَاهَةً ... ولا مُلْكَ إلاَّ للَّذى خَلَقَ الملْكا
أَرَى فَلَكاً مَادَارَ إلاَّ لِحِكْمةٍ ... فلاَ تَنْسَ من أَجْرَى لحَاجتِكَ الفُلْكا

وقال :

إن يُرْسل النَّفْسَ فى اللذاتِ صاحبُهَا ... فما يُخَلِّدْنَ صَعْلُوكاً ولا مَلِكَا
ومنْ يُطَهِّرِ بخوفِ اللهِ مُهْجَتَهُ ... فذَاكَ إنسانُ قومٍ يُشْبِهُ الملَكَا

وقال :

شفَاه مابكَ أعْيَانى وأعْيَا كَا ... فارجُ الذى هو أبْدَانى وإيَّا كَا
مالى أرَاكَ غَبِيًّا لَسْتَ تَقْدُران ... تُحْصِى خطَاكَ فَهَلْ تُحْصِى خَطَايَا كَا

وقال :

يا خالقَ البَدْرِ وشَمْسِ الضُّحَى ... مُعَوَّلى فى كلِّ حالٍ عَلَيْكْ
وكلُّ مَـلْكٍ لَكَ عَبْدٌ وَمَا ... يَبْقَى له مُلْكٌ فَيُدْعى مُلَيْكْ
قَدْ رامتِ النَّفْسُ لها مَوْئِلاً ... فقلتُ : مَهْلاً ، ليس هذا إلَيْكْ
إنَّ الذى صَاغكِ يَقْضِى بما ... شَاءَ ويُمْضِى فازجُرى عَاذَلَيْكْ
البَحْرُ فى قُدْرَتِهِ نُغْبَـــــةٌ ... والفَلَكُ الأعظَمُ فيهـا فُلَيْكْ

وقال :

إلَهَ الأنَامِ وَرَبَّ الغَمَامِ ... لَنَا الفَقْرُ دُونَكَ والمُلْكُ لَكْ

وقال :

فلا تَسْأَلِ المرء الغَنِىَّ عَطَاءَهُ ... وَرَجِّ الغِنَى منْ رَبِّكَ المُتَعَالِى

وقال :

أما تَرَى الشُّهْبَ فى أفلاكِهَا انتَقَلَتْ ... بِقُدْرَةٍ من مَلِيكٍ غيرِ مُنتَقِلِ

وقال :

نَمُوتُ لأَنَّنَا خُلَفَاءُ نَقْصٍ ... وَيَبْقَى من تَفَرَّدَ بالكَمَالِ

وقال :

حِكَمٌ تَدَلُّ على حَكِيمٍ قَادِرٍ ... مُتَفَرِّدٍ فى عِـزَّةٍ بكَمَالِ

وقال :

تَوَهَّمَ بَعْضُ القَوم وَهْماً فأضَلَّـوا ... يَقِينَ أُمُورٍ بَاتَ يَتْبَعُهَا الوَهْمُ
جَهِلْنَا ، ولـكِنْ للخلائِـقِ صَانِعٌ ... أَقَرَّ بِهِ فَسْلٌ منَ القَـوْمِ أو شَهْمُ

وقال فى ردِّ تأثيرِ الأشياء لله تعالى :

وقد يأمُرُ اللهُ الـكَهَامَ إذا نَبَا ... فَيفْرِى وقد يَنْهَى الحسامَ فَيـكْهَمُ

وزاد هذا المعنى وضوحاً بقوله وأجاد :

لو ينطقُ السَّيْفُ نادى ليس لى عَمَلٌ ... إذا قضى مالكُ الأفلاكِ أَنْضَانِى
متى أَرادَ فصفْحَاى اللَّذَانِ هُمَا ... بحرُ الرَّدَى من حياضِ الموتِ حَوضَانِ
وإن كهمْتُ فأمرُ اللهِ أكهَمَنى ... وإن مَضَيْتُ فأمرُ اللهِ أمْضَانِى

وقال :

ما فى بنى آدمٍ غَـنِىٌّ ... بل كُلُّهُمُ مُفْتِرٌ عَـدِيمُ
يَفْنَى الذى مَالَهُ فَنَاءٌ ... وذلك الواحِـدُ القَـدِيمُ

وقال :

رأيتُ سَجَايَا النَّاسِ فيها تَظَالُمٌ ... ولا رَيْبَ فى عَدْلِ الذى خَلَقَ الظُّلْمَا

وقال :

فَسَادٌ وكَوْنٌ حادِثَانِ كلاهُمَا ... شهيدٌ بأنَّ الخلْقَ صُنْعُ حَكِيمِ

وقال :

أَبَا لَقَدَرِ للُتَاحِ تَدِينُ جِنٌّ ... تَسَمَّعُ غَيْرَ هَائِبَةِ الرُّجُومِ

وتعلَمُ أنّ ما لم يُقْضَ صَعْبٌ ... فما تخشى المنيّة فى الهُجُومِ
بإذن الله يَنْفُذُ كلُّ أمرٍ ... فنهنِهْ فيضَ أدمُعِكَ السُّجُومِ
يَجُوزُ بحكمِهِ مَوْتُ الثُّرَيَّا ... وأن تبقى السماء بلا نُجُومِ
وكم وجم الفتى من بعد ضحكٍ ... وأضحِكَ بعدَ إفراطِ الوُجُومِ

وقال :

إذا مدحوا آدميًّا مَدَحْـ ... ـتُ مَوْلَى المَوَالى وَرَبَّ الأُمَمْ
وذاك الغنىُّ عن المادِحِين ... ولكن لِنَفْسِي عَقَدْتُ الذِّمَمْ
له سجدَ الشامخ المُشْمَخِرُّ ... على ما بِعِرْنِينِهِ من شَمَمْ
ومَغْفِرَةَ اللهِ مَرْجُوَّةٌ ... إذا حُبِسَتْ أعظُمِي فى الرِّمَمْ

وقال :

أَدِينُ بربٍّ وَاحِدٍ وتَجَنُّبٍ ... قَبِيحَ المساعِى حينَ يَظْلِمُ دَائِنُ

وقال :

إذا ما شِئْتُمُ دَعَةً وَخَفْضًا ... فعيشوا فى البَرِيَّة خَامِلِينَا
ولا يُعْقَدْ لكُمْ أَمَلٌ بخَلْقٍ ... وبيتُوا للمُهَيْمِنِ آمِلِينَا

وقال :

مطيَّتى الوقتُ الذى ما امتطيتُهُ ... بُودِّى ولكنَّ للمهَيْمِنَ أَمْطَانِى
وما أحدٌ مُعْطِىَّ واللهُ حارمى ... ولا حارِمى شيئًا إذا هو أعْطَانِى

وقال :

لعَمْرِى لخيرُ الذُّخر فى كلّ شدّةٍ ... إلهُكَ ترجو فضلَهُ وأَلاهُ
ولا ملكَ إلاّ للذى عزّ وَجْهُهُ ... ودامتْ على مرِّ الزمانِ عُلاَهُ

وقال :

تهجَّدَ مَعْشَرٌ لَيلاً ويمنا ... وَفَازَ بِحِنْدِسٍ مُتَهَجِّدُوه
إلهُكَ أوجدَ الأشياء جمعاً ... فلا يفخر بشيء موجدُوهُ
وربُّك أنجدَ الأقوامَ حتَّى ... بَنى أعلى القصورَ مُنَجِّدُوهُ
فجدَّ فلم يخسَرْ أناسٌ ... أنابُوا للمليكِ وَمَجَّدُوهُ

ولنختم هذا الفصل بقوله :

تشابهتِ الأشياء طبعاً وصورة ... وربّك لم يُسْمَع لَهُ بِشَبِيهِ

هذه أقوال من يتهمه المتخرصون بإنكار الإله ، سُقْنَاها إليك لتكرر النظر فيها — المرّة بعد المرّة ، ثم نكلكَ إلى محاسبة نفسك ، ومحاكمة فكرك هل ترى فيها غير التوحيد والتنزيه ، وإجلال اسمه تعالى والطمع فى رحمته والخوف من عقابه ، والحض على التقوى ؛ والإنكار على الملحدين ؟ !

ولا نخالك بعد ذلك إلاّ مُنْصِفَهَ إن كنت من المخلصين .

فصل فى معتقده في النبوات والرسل

يتهم الكثيرون أبا العلاء بجحد النبوات ، وعدم الإيمان بالبعث والنشور وكثيراً ما يتعمدون تحريف كَلِمة ، أو صرف ظاهره إلى غير مراده ، افتياتاً عليه ، وانتصاراً لمدعاهم . فضلا عما وضعوه على لسانه من الكذب والبهتان ، كما أثبته نقَلة أخباره . وقد مرَّ بك حديثُه مع القاضى المعازى . وكيف اقتضبه الرواة — ليثبتوا إلحادة وإنكاره للاخرة . ونقل ياقوت والسَّلوى عن القاضى أبى يوسف عبد السلام القزوينى أنّه قال : قال لى المعرّى : لم أهج أحداً قط . فقلت صدقت ، إلّا الأنبياء عليهم السلام ! فتغيّر لونه . أو قال : وجهه . اهـ » ولا أدرِى ماذا يثبته هذا الحديث أو ينفيه .

وإليك ما ذكره العلامة ابن الوردىّ فى تتمّة المختصر ، وهو من أدقّ الباحثين فى أمره . قال : « قال لى يوماً بعض أصحابى من الأمراء ذوى الفهم كيف كان أبو العلاء فى اعتقاد البعث ؟ فأنشدته قوله :

فَيَاوَطَنى إنْ فَاتنى مِنْكَ سَابِقٌ ... منَ الدَّهْرِ فَلْيَنعم لسَاكِنِكَ البَالُ
وإنْ أَسْتَطِعْ فى الحَشْرِ آتِكَ زَائِرًا ... وَهَيهَاتَ ، لى يومَ القيامةِ أَشْغَالُ

وبلغنى أنّ بعضهم زعم أنّ أبا العَلَاء كان ينكر النبوات ، فهذا مردود بقول أبى العلاء :

عَجِبْتُ وقد جُزْتِ الصَّرَاةَ رِفِلَّةً ... وما خَضِلتْ مما تسربلتِ أَذْيَالُ
أَعُمْتِ إلينا أم فِعالَ ابنِ مريمٍ ... فعلتِ ، وهل يُعْطَى النبُوَّةَ مِكْسَالُ

وقوله فى شريف :

يا ابنَ الذى بلسانه وبيانه ... هُدِيَ الأَنَامُ ونُزِّلَ التَّنزِيلُ
عن فضله نطق الكتابُ وبُشِّرَتْ ... بقدومه التوراةُ والإنجيلُ

وقال فى الشريف أبى ابراهيم العلوى الموسوى :

يا ابنَ مُستعرضِ الصُّفُوفَ بِبَدْرٍ ومبيدِ الجموع من غَطَفَانِ
أَحَدِ الخمسةِ الذينَ هُمُ الأَغْـ ـرَاضُ من كلِّ مَنْطِقٍ والمَعَانِى
والشُّخُوصِ التى خُلِقْنَ ضِيَاءً قَبْلَ خَلْقِ المَرِّيخِ والمِيزانِ
قَبْلَ أَنْ تَخْلُقَ السَّمَوَاتُ أو تُؤْ مَرَ أَفْلاَكُهُنَّ بالدَّوَرَانِ
وَافَقَ اسْمُ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُـ ـولِ اللهِ لَمَّا توافَقَ المَعْنيَانِ
يا أَبَا ابراهيمَ قَصَّرَ عَنْكَ الشِّـ ـعْرُ لَمَّا وُصِفْتَ بالقُـــرآنِ
أَشْرِبَ العَالَمُونَ حُبَّكَ طبْعًا فَهْوَ فَرْضٌ فى سَائِرِ الأَدْيَانِ

وقوله :

أَيَدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسْلِ قَوْمٌ وَفِيكَ وفى بَدِيهَتِكَ اعْتِبَارُ

انتهى كلام ابن الوردى . وما ذكره من الشعر منقول من — سقط الزند ولقائل أن يقول ما لكم تنتصرون للرجل بكلامه فى سقط الزند ، وهو لم يقصد به بياناً لمذهبه ، أو سرحاً لمعتقده ، بل جـــرى فيه مجرى الشعراء فى أغانيتهم الشعرية ، وأخرجه مخرج هيامهم فى كل واد من القول وضرب من الخيال ؛ وهم كما تعلمون يجـــوزون الكذب ، ويقولون مالا يفعلون ؛ فشأنه فى ذلك شأنهم ودعواه وعواهم ، فإذا مدح شريفا لم يكن له بد من تقديس آبائه ، والإقرار لجدهم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة ، تعظيما لشأن الممدوح ؛ كما لا مندوحة له فى الرثاء عن وصف ما لفيه المرثى من التكريم فى جنات النعيم ليكون قوله مقبولا لدى من يخاطبهم ، وأدعى للحظوة عندهم ، وإن يكن هو معتقدا له . وما يقال فى هذا يقال فى غيره وإلاّ للزمكم أنه كان على غير ما تَدَّعُونَ له من الزهد والتقوى ، لما أثبته فى هذا الديوان من الغزل

والتشبيب وبكاء الشباب والفخر ، وهى والزّهد على طرفى نقيض . فلو اقتصرتم على ما فى « لزوم ما لا يلزم » ونحوه من الكتب التى وضعها لبيان فلسفته وآرائه ، لسلمتم من هذا النقد ! .

ونقول فى ردِّ ذلك : ربَّما كان لما ذكرتَ وجه من الصحة ، إلا أنا لما رأينا كم آخذتم الرجل على بعض ما جاء فى هذا الديوان ، واستدرجتم به إلى الطّعن فى عقيدته ، مع أنه لا يخرج عن الغلوِّ المألوف للشعراء كما بيناه آنفاً — استجزنا أيضاً أنّ نحجكم بما جاء ، فيه من صريح ذكر الحشر ، والإيمان بالرسل وإثبات المعجزات » عليهم السلام . وشتّان ما بين حجتينا . على أن ما ادعيتوه لا يصح الحكم به على مطلق شعر يقوله الشاعر ، وإلا فالويل للشعر والشعراء بعد ئذ .

* * *

وبعد ، فإنا لم نحكم لأبى العَلَاء بصحة إيمانه بالرسل والنبوات إلا من أقواله المثبتة لذلك ، المصرحة به . فلا ريب فى أن ما يوهم فى ظاهره نقيضها من أقواله الأخرى ، مؤول بما يحتمله لفظه ، وكثير منها لم يرد به الطعن على الأديان نفسها ، بل أراد أهلها ومنتحليها ، لتفريطهم فيها أو إفراطهم ، كما صرّح به فى أقوال أخرى ، ستأتى عليها فى هذا الفصل .

وقد رأيت بعض المتعصبين عليه يظفر بالبيت الموهم ، فيردده فذاً من غير نظر لما قبله أو بعده . ولو تدبر ذلك لظهر له مـــــراده ، ولم يجد سبيلا للطعن عليه .

على أنا مع هذا لا نبرئه رحمه الله من بعض سقطات زل بها لسانه ، ليس فيها جحد للنبوّات ، ولـكن ذكرها لا يخلو من شناعة . وكان الأولى له التفادى عن نظمها فى هذا السمط . ولا مشاحة فى عذر من أنـكر عليه فيها ، وإنما

كلامنا فيمن يرميه بالإلحـــاد ، وهو براء منه ، بدليل ما ذكرناه من كلامه وما سنذكره .

* * *

أما من استدل على إنكاره النبوّات ، وتحكيمه العقل فى التحسين والتّقبيح ، بقوله :

عَلِمَ الكائِنَاتِ فى كلِّ وجهٍ أوّلٌ عِنْدَهُ السِّمَاكُ صَبِىٌّ
خَالِقُ الطَّيْرَاتِ مَا يَتَغَابَى الـ ـعَبْدُ لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ غَبِىٌّ
أيُّها الغِرُّ إن خُصِّصْتَ بِعَقْلٍ فاسألنهُ فكلُّ عَقْلٍ نَبِىٌّ

فقد اخطأ المرمى ، ونكب عن سبيل القصد ، فإن مراده بقوله « فكل عقل نبىٌّ » أنّ العقل كاف فى الأخبار والدلالة على وجود صانع لهذه الكائنات ، ولا عذر للعبد فى جهله بخالقه ، ما دام له عقل ينظر به ويستنيره ، كما يدل عليه سياق الأبيات عند التأمل .

وهذه المسألة من المسائل التى قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام ، وانقسم فيها أهل السنة إلى قسمين . فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند الى أنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولا لوجب عليهم بعقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته واتصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها ، وكونه محدثاً للعالم ، وهو أيضاً أرجح قولى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل ولا يرد على الأول أنه لو كان العقل حجة كافية ما أرسل الله الرسل ولا كتفى به ، لأنه يقال فى جوابه : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل على العقل وحده ، إلا بعظيم تأمل فيه ، وكذلك أنواع العبادات والحدود ونحوها لا تنال بمجرد العقل — كان إرسال الله تعالى رسله وإنزال كتبه ، لبيان ذلك . وأصل الخلاف

إنما هو فى الأيمان بالله، لا فى أحكام الشرائع . فان قيل لو كان العقل كافياً فى ذلك لا قتصرت الشرائع على بيان ما ذكرتم ، ولم تتعرض لأحكام الإيمان بالله تعالى وتنزيهه ، واتصافه بصفاته اللائقة ونحوها ، اكتفاء بدلالة العقل عليها . قلنا : كان ذلك لزيادة التمكين وتتمة البيان، من قبيل توارد الأدلة وتعاقبها. فإنه تعالى لم يدعنا والبيان بآية واحدة ، بل من علينا سبحانه بآيات متكررة . وكذلك لم يدعنا ورسولا واحداً من أول الأمر إلى آخرة ، والحجة كانت قائمة بالواحد كما بقيت بنبينا عليه الصلاة والسلام إلى القيامة ؛ فلا يدل ذلك على أن الرسول الواحد أو الآية الواحدة لم يكونا حجة كافية .

هذا محصل ما ذكروه فى هذا المقام ، ولكل من الفريقين أدلة من الكتاب والسنة يحتج بها لمذهبه ، فاطلبها إن شئت فى كتب الكلام ، خصوصاً فيما ألف منها فى « الخلاف بين الماتريدية والأشعرية » وأنظرها أيضاً فى كتب التفسير عند قوله تعالى :

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً

تم بحمد الله وتوفيق عنايته مراجعة هذا الكتاب مراجعة دقيقة على « المخطوطة المحفوظة بدار الكتب — فجاءت شافية وافية بالغرض المنشود والغاية المتوخاة — وتحقيقاً لما أشار به المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا . طيب الله ثراه ؟

المصادر والمراجع

نزهة الجليس للحسيني ج ١ ص ٢٧٨ : ترجمة أبي العلاء المعرّي

روضات الجنات في التراجم طبع العجم ص ٧٣ : ترجمة المعرّي

المقتبس ج ٥ ص ٣٥٣ — ص ٣٧١ : ترجمة المعرّي بقلم الأستاذ معلوف

للمقتطف ج ٤٩ ص ٢٢٥ و ص ٤٦٥ : المعرّي وفلسفته للأستاذ العقاد

الريحانة ص ٣٣٤ — ٣٣٥ : الكلام على بلده

مجلة الشرق ج ٤ ص ١٠٦٨ : كلام عن المعرّي

مسائل ابن السيد ص ١٥٨ : شيء قليل عن الفصول والغايات يلحق بوصف كتب أبي العلاء المعرّي

البغدادي على شرح بانت سعاد ج ١ ص ١٩٩ : ترجمة المعرّي وهي مختصرة

حلبة الكميت ص ٢٤٣ : حكاية المعرّي مع المنازي

مجموع الظرف — لأبي مدين ص ٧٧ : نادرة المعرّي مع المنازيّ (في : وقانا لفحة الرمضاء واد)

وبعدها في ص ٧٨ : نادرة في شدة إحساسه

المحاضرات والمحاورات للسيوطي ص ١٢٣ : ابن القارح كاتب الرسالة للمعرّي

بغية الوعاة للسيوطي ص ١٣٥ : أحمد بن الصنديد العراقي أحد من روى شعر المعرّي الخ .

نكت الهميان ص ١٥٠ : داود عبد الرحمن كان مولعاً بشعر المعرّي

سحر العيون ص ٧٦ : (قالوا العمى منظر قبيح) وسبب نظم أبي العلاء له .

وفي ص ٧٧ منه : (أبا العلا يا ابن سليمانا) نسبهما لأحد تلاميذ أبي العلاء

سبحة المرجان ص ١٤٢ : أبيات لأبي اليسر أخي العلاء

obeikandl.com

المنهل الصافى ج ٥ ص ٨ : نادرة لابن الوحيد وقوله : (أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى) تؤخذ استطراداً . ولعلَ موضعها شعر المعرّى

جواهر الكنز — لابن الأثير الحلبى ص ٧٤ — ص ٧٧ : مقطعات للمعرّى فيها تورية — انظرها فلعلها من شعره المفقود ! ؟

الشريشى ج ١ — أول ص ٣١٠ : أبيات للمعرّى لعلها ليست فى ديوانه .

غرر الخصائص ص ٢٧١ . أبيات للمعرى لعلّها لا توجد فى الديوان

تكملة الصلة — لابن الأبّار ج ٢ — أوائل ص ٥٢١ : أحد من كان عنده شعر المعرّى مسموعاً عليه .

وفى أول ص ٥٢٤ : أحد من روى شعر المعرّى

شرح مقصورة حازم ص ٧٨ : أبيات لأبى العلاء المعرّى يبحث عنها فى ديوانه ولعلها من شعره المفقود ؟ !

شرح التصريف الملوكى لابن جنى ص ٤٩٥ :

تيم اللات — قيل له فى الإسلام :

تيم الله . وهو أحد الألفاظ التى أزال الإسلام استعمالها .

البغدادى — على شرح بانت سعاد ص ٢١٦ — ٢١٧ : تيم الله ، وتيم اللات

ملح الملح رقم ٦٥٢ — أدب : ينقل منه كثيراً عن المعرّى فى اللزوميات وغيرها.

وفى أوائل ص ٦٣ : أبيات لأبى العلاء قال إنها : من كتابه «جامع الأوزان» تذكر عند الكلام عليه وعلى مؤلفاته .

نصرة الثائر ص ٧٢ : شىء من رسالة أبى العلاء فى ذم الدنيا »

الصفدى على اللامية ج ١ ص ١٥٨ وفى ص ١٨٤ : سرقة لأبى العلاء

الصفدىّ على اللامية ج ٢ ص ١١١ : سرقة لأبى العلاء ج ٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ : سرقة للمعرى وكأنها مأخوذة من ابن المعتز

سلك الدرر ج ٢ ص ٤٢ ـ ٤٣ : تخميس : « حجبوها عن الرياح » ربما لزم عند ذكر توارده بعد سرقاته .

وفى ج ٣ ص ١٣٠ : معنى أخذه المعرّى عن المتنبّى

نفح الطّيب ج ١ ص ٣٠٠ : سواد القلب والبصر أخذه فى أبى العلاء ، أو تواردا فيه .

شرح كفاية المتحفظ ص٢١٦ : سرقة من أبى العلاء.

الريحانة ـ أول ص ١٨ : سرقة من المعرّى

وفى ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ : سرقة داود الحكيم معنى المعرّى

العمدة ج ٢ ص ٧٨ : المشترك الذى لا يعد سرقة

نصرة الثائر ص ١٦٤ ـ ١٦٥ : بيتان للمعرّى سرق معناها

سفر السعادة النسخة العتيقة ص٦١ : ضبّار اسم كلب وشاهدعليه . وفى ص٦٣: ضمران كلب للنابغة . وفى أول ص١٣٢ : بيتان فيهما أم العاديات وفلحس وابن زارع وفى ظهر ص ١٧٨ : (أرى نار قلبى أو يرانى بصيرها أى : الكلاب الخ . وفى ص ٢٠٣ : نادرة فى اسم (معاوية) الف باء ج ١ ص ٣٧٨ ـ ص ٣٨٣ : الكلاب ونوادرها وفى ص ٤٢٨ : رجل اسمه ذئاب واسم كلبه عمرو

نفح الطيب ج ٢ ص ١٨٧ : خصال الكلاب المحمودة التى ذكرها الراعى فى شرحه للألفية ونسبها للحسن البصرى

المطرّزى على المقامات ص ٨٩ : تملق الكلاب .

الريحانة ص ٢٥٠ : نبح الكلاب على الفقراء دون الأغنياء

بغية الوعاة ـ للسيوطى ص ٣٧٦: ترجمة صدر الأفاضل شارح سقط الزند

مجموع السفيرى ص ٩٣ : للبقاعى انتقاء سقط الزند وسماه فوح الزند لعله قدح أو : فوح الزند

نفح الطيب ج ٢ ص ٩٤٠ : أشعار كفرية واعتذار قائليها بأنه قال مالم يفعل !

الغفران ص ١٣٤ ـ ١٣٥ : كلام أبي العلاء في الزنادقة .

مجموع السفيري ص ١٩٥ : بيتان رؤيا مكتوبين على قبر أبي العلاء المعرّي

عيون التواريخ لابن شاكر ص ٢١٤ : مرثية المعرّي في أبي الراضي .

ديوان أبي حجلة العسقلاني ٨١١ شعر ص ١٢٩ : تضمينه استغفر الله في حلّي وترحالي .

مجموع الفوائد لابن نباته رقم ٦٧٨ — أدب ص ٢٥ : قول أبي العلاء :

« ولكن لا تدل على النشور » وتوجيهه وأنه لم يلحد

معاهد التنصيص ص ٢٥٩ : قوله «لا أرجو جنة ولا أخاف ناراً)

رقم ١٣٣ حكمة ص ٩٠ بالحاشية : كلام عن قوله « قلّم لنا صانع حكيم »

نفح الطيب ج ٢ ص ١٥١ : اقرأ الصفحة كلّها ففيها كلام في العجز عن إدراك كنه الله

ألف باء ج ١ ص ١٧٩ . توجيه مشكلات في : صفات الله .

الأبحاث المستردة ـ للمقيلي ص ١٩ : أبيات لعله يصلح أخذها في معناه :

ليست لنا عقول أو نحو ذلك

ابن الوردي ص ٣٦٢ : عدم إنكاره للنبوات

الجزء الأول من مرآة الزمان لسبط بن الجوزي ص١٦٤ بيت لأبي العلاء فيه :

« الهرماس يعني إدريس عليه السلام».

سرح العيون أول ص ٢٥٥ : زعم بعض من يبغض أبا العلاء أنه خرج ليناجي ربه كما فعل موسى عليه السلام ، وكون الحكاية باطلة

تمت « بحمد الله وتوفيقه »